الفصل الخامس

الغزل العفيف

أولا : استمرار الغزل العفيف :

عرضنا فيما تقدم من فصول لاتجاهات الغزل المختلفة من تقليدى وحسى وغلمانى وتبين أن الغزل فى هذا القرن كان فى أكثره غزلا مكشوفاً لم يشهد له أدبنا العربى من مثيل فى العصور التى سبقته ، ولم يعرف أى عصر أدبى من الشعراء المجان ما عرفه القرن الثانى . وتشاء سنة الطبيعة ألا يخلو هذا القرن من غزل عفيف يبتعد أصحابه عن التعابير المكشوفة والألفاظ الفاضحة والصراحة المخجلة ليحلوا محلها حصيلة ما اعتور نفوسهم من حب صادق عفيف عاشوا له وقضى بعضهم دونه أو كاد . وليس بغريب أن يجد الباحث فى هذا القرن شعراء من هذا النوع لأن المجتمعات الإنسانية مهما بلغ بها الانحطاط مداه فى أى عصر من العصور لا تعدم أن تجد فيها أناساً يقفون فى الصفوف المقابلة مهما كان عددهم قليلا . ويمكن أن يقال إن الغزل العفيف شجرة نبتت بذرتها فى الجاهلية ، ثم ترعرعت وازدهرت فى العصر الأموى واستمرت فى العصر العباسى . وهكذا ظلت لهذا الغزل فروعه فى القرن الثانى بعكس ما ذهب إليه حسان أبو رحاب من أنه غاب واحتجب لأن أسبابه لم تعد قائمة فيه ، ولأنه وجد فى هذا العصر من العوامل والأسباب ما ينافيه[1] . يظهر أن صاحب هذا الرأى مأخوذ بما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن العباس بن الأحنف « سقط بين الكرسيين — كما يقول الفرنسيون — لأنه لم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بنى أمية وإجادة العابثين من شعراء بنى العباس ، وإنما جاء فاتراً لم يترك فى النفس أثراً قوياً ، لأن الفن الذى أراد أن يختص به كان قد انقضى عصره وانتهت الأسباب التى

---

(١) الغزل عند العرب ٢٠٥ .

أوجدته ومكنت الناس من إتقانه والإجادة فيه[١] » . هذا تعميم من الاثنين معاً ينقصه الدليل القاطع ، لأن العفة فى القول والعمل غير مرهونة بعصر من العصور ثم إن انغماس أكثر الناس ومنهم الشعراء فى القرن الثانى بالمجون ومفاتن الحضارة الجديدة لا يعنى انتفاء العفة واختفاءها نهائياً ، إذ لابد من أن يوجد فى كل مجتمع الخيرون والأشرار ، المجان والزهاد ، وأهل الطهر والعفاف . فإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلا نلاحظ أنه فى الوقت الذى كان يشيع فيه الغزل العذرى وقصص الحب الطاهر فى بوادى الحجاز وعند فقهاء مكة والمدينة كان عمر بن أبى ربيعة وأضرابه من الشعراء يخرجون على الناس بغزلهم الفاحش الصريح مثلما كان يفعل امرؤ القيس ومن لف لفه من قبل . فهل يمنع إذا ماعرفنا هذا أن يظهر العباس ابن الأحنف ومعه عدد قليل من الشعراء بهذا الغزل العفيف فى إزاء غزل بشار وأبى نواس والحسين الخليع وغيرهم من شعراء العصر؟ أحسب أن لا ، وهذه سنة الحياة ولا سبيل إلى الخروج عليها . لكنه من الإنصاف أن نقول إن الدكتور شوقى ضيف كان على حق عندما عدّ ظهور العباس بن الأحنف بغزله الطاهر العفيف شذوذاً على جيله ومجتمعه[٢] . وقد كان يظن إلى فترة قريبة أنه لا يوجد إلا العباس ابن الأحنف ممثلاً لهذا الاتجاه . قال الدكتور شوقى ضيف : « وبذلك أصبحنا نفتقد فى هذا العصر الشاعر العفيف إلا ما كان من العباس بن الأحنف ، وهو يعد شذوذاً على ذوق العصر وذوق إمائه وشعرائه »[٣] . غير أن الدكتور مصطفى هدارة نبّه إلى وجود شعراء آخرين فى القرن الثانى ممن امتازوا بالعفة والطهارة[٤] . فيكون بذلك قد أضاف جماعة إلى العباس تشاركه فى اتجاهه . ويبدو أن الدكتور شوقى ضيف نفسه التفت إلى ما جاء به هدارة فقال : « وكان يجرى بجانب هذا التيار — تيار الغزل الصريح — تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بنى أمية . . .وطبيعى أن يضعف هذا التيار فى العصر

---

(١) حديث الأربعاء (ط دار المعارف ١٩٦٢) ١ / ٢٩٤ .

(٢) العصر العباسى الأول ٧٣ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السادسة) ٦٤ .

(٤) اتجاهات الشعر فى القرن الثانى ٥٠٧ .

العباسى الأول ،الذى قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر . ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بعن وضرب بينهم وبينهن حجاب صفيق فعاشوا يتعذبون بالحب وعاش الحب فى قلوبهم قوياً حاداً »[1] .

إن انحصار هذا الاتجاه فى خمسة شعراء برياسة العباس بن الأحنف وعضوية عكاشة العمّى ، وعلى بن أديم ، والمؤمل بن جميل ، وابن رهيمة يؤكد ما ذهب إليه الدكتور شوقى من ضيق مجرى هذا التيار إذا ما قيس بمثياه فى العصر الأموى . يلاحظ لأول وهلة على هؤلاء الشعراء ندرة أخبارهم وقلة أشعارهم — باستثناء العباس — كما وصلت إلينا فيما تسنى لنا الاهتداء إليه من المصادر القديمة . ثم إن هؤلاء الشعراء لم يحطهم الرواة بهالات التهويل والتعظيم والتزيد ، ولم يسبغوا عليهم ما أسبغوه على أكثر زملائهم من الجاهليين والأمويين مما يشبه الأساطير ومتاهات الأحلام أحياناً . وهذا يحمل على القول فى يقين إن أخبارهم خلت من التزيدات والمبالغات ، حتى إنها لم تصل إلينا كما كنا نأمل ونريد .ثم إنهم — فيما يبدو — قصروا شعرهم على فن واحد هو الغزل العفيف الذى يكشف عن حبهم الذى ظلوا يتعذبون من جرائه، ويعانون بسببه كثيراً من الأمور . ثم إنهم بالإضافة إلى ذلك قصروا تغزلهم على امرأة واحدة بعينها . وأكثر صاحباتهم كن من الجوارى، فى حين كانت صواحب زملائهم السابقين من الحرائر . وبهذا تنطبق عليهم خصائص العذريين السابقين من عفة وتوحيد وديمومة وصدق وإخلاص . كما يفتقد فى أخبارهم الشتات والضياع فى الفلوات والقفار ، والنهايات العجيبة الغريبة مما أضافه الرواة إلى زملائهم السابقين إلا ما قيل عن على بن أديم إنه لما بيعت صاحبته (مَنْهلة) مات حزناً عليها فماتت بعده جزعاً عليه . ولعل فيما تقدم من خصائص يمثل ما امتاز به هذا النفر عن أخبار وقصص سابقيهم من العذريين .

نظراً لقصر المادة التى تتعلق بالشعراء فيما عدا العباس نقدمهم

---

(١) العصر العباسى الأول ٣٧١ .

فى الحديث عليه ولنا معه بعد ذلك وقفات ، نكشف عن هواه ونتدارس شعره ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

ثانيا : شعراء الغزل العفيف

١ ــ عكاشة العَمّى :

هو عكاشة بن عبد الصمد العَمّى البصرى ، من بنى العم الذين نزلوا ببنى تميم بالبصرة أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم حتى قال لهم الناس: « أنتم وإن لم تكونوا من العرب إخواننا وأهلنا وأنتم الأنصار والإخوان وبنو العم »، فلقبوا بذلك وصاروا فى عَدّاد العرب[١] . وعكاشة كما يقول أبو الفرج: « شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية، ليس ممن شهر وشاع شعره فى أيدى الناس ولا ممن خدم الخلفاء ومدحهم »[٢] . كان يهوى جارية لبعض الهاشميين تدعى « نُعيم» وكان أمرها مستصعباً لا يراها إلا من جناح لدارهم تشرف فى بعض الأوقات وتكلمه كلاماً يسيراً ثم تذهب ، وكانت تواعده الزيارة ولا تفى إلا فى القليل النادر عملا بنصيحة صاحبة لها كانت تشفق عليها من غدر الرجال ومكرهم[٣] ، وأشار عكاشة إلى هذا فقال[٤] :

عَلامَ حَبْلُ الصفاء منصرمُ ... وفيم عنى الصدود والصمم
يامن كنينا عن اسمه زمناً ... نبتغ مرضاته ويجترم
قد عيل صبرى وأنتِ لاهيةٌ ... عنى وقلبى عليك يضطرم
من جَدَّ حبل الوفاء سيدتى ... منك ومن سامنى له العدم...
يارَبِّ خذ لى من الوشاة إذا ... قاموا وقمنا إليك نختصم
دبوا إليها يوسوسون لها ... كى يستزلُّوا حبيبتى زعموا

---

(١) الأغانى ٣ / ٢٥٧ .
(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٥٨ .
(٣) المصدر السابق ٣ / ٢٥٨ .
(٤) المصدر السابق ٣ / ٢٥٩ .

هيهات من ذاك ، ضلّ سعيُهم ما قلبها المستعار يقتسم
ياحاسدينا موتوا بغيظكم حَبْلى متين بقولها نعَمُ
بالله لا تشمتى العُداة بنا كونى كقلبى فلست أنهم

ويظهر أنها لانت بعض الشيء بعد طول تردده إليها واستصلاحه لها . جاءت إليه مرة فدعا صديقاً حميماً له فاجتمعوا وشربوا وغنّتهم غناء حسناً وظلوا حتى العصر ثم انصرفت ، فذكر عكاشة أمر الاجتماع فى شعره[١] . غير أن مدة الوصل بينهما لم تدم طويلا ، فكانت قصيرة لا تزيد على السنتين فيما يبدو من شعره قال[٢] :

لهفى على الزمن – الذى ولى ببهجتــه – القصير

وقال[٣] :

طالبتها حولين لا ليلى بها ليل ولا هذا النهار نهار

والسبب أن شخصاً بغداديًّا اشترى (نُعيم) من مولاتها ورحل بها إلى بغداد « فعظم أسف عكاشة وحزن عليها واستهام بها طول عمره فاستحالت صورته وطبعه وخلقه ....، فكان أكثر وكدّه وشغله أن يقول فيها الشعر وينوح عليها ويبكى»[٤] . وليس أدل على هذا الكلام من قول الشاعر نفسه :

طالبتها حَوْلين لا ليلى بها ليل ولا هذا النهار نهار
حتى إذاظفرت يداى بكاعب كالشمس تقصر دونها الأبصار
وثلجت صدرا بالفتاة وصارتا كالنفس نفسانا ، وقرّ قرار
بلغ الشقاء أشد ما يسطيعه فينا وفرّق بيننا المقدار

---

(١) الأغانى ٣ / ٢٦٠ .
(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٦٣ .
(٣) المصدر السابق ٣ / ٢٦٢ .
(٤) المصدر نفسه ٣ / ٢٦٢ .

وظل الشاعر يبكيها بعد فراقها ، كما ظل مخلصاً لها ووفيًّا حتى إنه كان يتمنى الموت ليستريح مما خلفه فراقها له من هموم وأحزان ، قال[١] :

نُعيم هل بكيتِ كما بكيتُ ... وهل بعدى وفيت كما وفيت ؟
ألايا ليت شعرى كيف بعدى ... طبارك إذنأَيت وإذنأَيتُ ؟
فكم من عبرة ذَرَفَتْ فلما ... خشيتُ عيون أهلى واستحيتُ
نهضت بها مكاتمةً فلما ... خلوت ذرفتها حتى اشتفيت
وقلت لصحبتى لما رمانى ... هواك بدائه حتى انطويت
أرانى من هموم النفس ميتاً ... ولم أر فى نعيم ما نويت
فليت الموت عجّل قبض روحى ... جهارًا فاسترحتُ وأين ليت ؟!

يبدو أنه كان يحبها حبًّا شديداً ، وشعره فيها يطفح بالعواطف الجياشة والمشاعر الصادقة التى تكشف عن هوى صاحبها ، قال[٢] :

طرفى يذوب وماء طرفك جامد ... وعلى من سيما هواك شواهد
هذا هواك قسمته بين الورى ... ومنحتنى أَرَقاً وطَرْفُك راقد
فعلىّ منه اليوم تسعة أسهم ... وعلى جميع الناس سهم واحد

ولشدة هذا الحب لم يكتف الشاعر بالبكاء على فراقها أو الإبقاء على حبها مخلصاً وفيًّا ، وإنما ظل يحن إليها ويتحسر على ما كان من أمره معها يردده نغمات حزينة يسلى نفسه ويروح عنها بعض عذابها وعنائها فيقول[٣] :

ألاليت شعرى هل يعودن ما مضى ... وهل راجع ما مات من صلة الحبل
وهل أَجلسنْ فى مثل مجلسنا الذى ... نعمنا به يوم السعادة بالوصل
عشية صَبّتْ لذةُ الوصل طيبَها ... علينا وأَفنان الجنان جَنَى البَذْل

---

(١) الأغانى ٣ / ٢٦٢ .
(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ٣ / ٢٦١ .

ويقول[١] :

أنعيم فى قلبى عليك شرار وعلى الفؤاد من الصبابة نارُ
وعلى الجفون غشاوة وعلى الهوى داع دَعَته لحينى الأقْدار
بمضِلةٍ لُبَّ الحليم إذا رَمَتْ بالمقلتين كأنها سَحّار

ليس بغريب أن يحن إليها هذا الحنين ويتحسر على حبها تلك الحسرات بعد أن تغلغل حبها فى أعماقه حتى سله ودعاه إلى مر الأمور فأكد هذه المعانى فى قصيدة جميلة خاطب فيها صاحبته مكرراً اسمها فى بداية كل بيت وهو تكرار محبب يدل على لوعته وأساه، ويكشف عن حقيقة حبه، حتى إنه لو ردده فى كل بيت من القصيدة لما مله السامع لما فيه من عذوبة وانسجام ، قال :

أنُعيم حُبُّك سلَّنى وبلانى وإلى الأَمَر من الأمور دعانى
أنعيم لو تجدين وجدى والذى ألقى بكَيْتِ من الذى أبكانى
أنُعيم سيدتى عليك تقطعت نفسى من الحسرات والأحزان
أنعيم قد رحم الهوى قلبى وقد بَكَتِ الثيابُ أسىً على جثمانى
أنعيم وانحدرتْ مدامع مقلتى حتى رحمتُ لرحمتى إخوانى
أنعيم مثّلك الهُيام لمقلتى فكأننى ألقاك كل مكانى
أنعيم نظرةُ سحر عينك بالهوى معروفة بالقتل فى إنسان
أنعيم إشفى أو دعى مَنْ داؤه ودواؤه بيديك مقترنان

٢ – على بن أديم :

هو على بن أديم الكوفى ، كان من تجار الكوفة الذين يبيعون البز[٢] ، وكان متأدباً صالح الشعر[٣] . فى كل ما رواه أبو الفرج فى (أغانيه) يتضح أن عليًّا عشق جارية لبعض نساء بنى عبس فى الكوفة يقال لها (مَنْهلة) ، قيل

(١) المصدر نفسه ٣ / ٢٦٢ .
(٢) البز : الثياب من الكتان والقطن .
(٣) الأغانى ١٥ / ٢٦٦ .

إنه علقها وهى صبية تختلف إلى الكتاب وعليها ثياب سود ، فاستهام بها وأعجبته فقال فيها :

إنى لما يعتادنى من حب لابسة السواد
فى فتنـــة وبلية ما إن يطيقهما فؤادى
فبقيت لا دُنْيَا أصبت (م) وفاتنى طلب المعاد[1]

ويستفاد مما يرويه صاحب الأغانى أن قصة حب على ومُنْهلة كانت مشهورة ومعروفة ، يقول : « وله حديث طويل معها فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما ، وفيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً ، وما قال فيها من الأشعار ، وأمرهما متعالم عند العامة »[2] . وأشار إلى مثل هذا ابن النديم أيضاً فذكر اسم على فى أسماء العشاق من سائر الناس ، وقال إنه ألف فى حديثه كتاب هو كتاب « على بن أديم ومنهله »[3] . لكنه لم يصل إلينا من أمر هذا الكتاب شىء . ويبدو أنه قد ضاع واندثر كغيره من الكتب التى ضاعت ، كما أنه لم يصل إلينا من الأشعار التى أشار إليها أبو الفرج إلا مقطوعتان ، الأولى التى قالها عندما رآها فى الكتّاب وهى الأبيات الثلاثة المتقدمة ، والثانية قالها عند رحيلها بعد أن باعتها مولاتها . ولو قُدّر لنا أن نعثر على الكتاب والشعر لاستطعنا أن نحصل على صورة أكثر وضوحاً للحب الذى ربط بين على وصاحبته بروابط يبدو أنها كانت متينة بدليل ما يرويه أبو الفرج نفسه من أنها لما بيعت مات جزعاً عليها ، فلما بلغها خبر موته ماتت بسببه ؛ حتى قيل آخر من مات من العشق على بن أُديم[4] . يذكر أن والد على أرسل جماعة من التجار إلى مولاة منهلة لتبيعها فأبت . ولكنها باعتها لبعض الهاشميين ، الذى يظهر أنه رحل بها عن الكوفة ، فقال على[5] :

---

(١) المصدر السابق ١٥ / ٢٦٨ .
(٢) الأغانى ١٥ / ٢٦٦ .
(٣) الفهرست ٤٢٦ .
(٤) انظر : الأغانى ١٥ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ .
(٥) المصدر السابق ١٥ / ٢٦٧ .

صاحوا : الرحيل وحثّني صحبي قالوا : الرواحُ ، فطيروا لُبّي
واشتقت شوقاً كاد يقتلني والنفسُ مشرفة على نَحْبِ
لم يلق عند البين ذو كلف يوماً ، كما لا قيت من كرب
لا صبر لى عند الفراق على فَقْدِ الحبيب ولَوْعةِ الحُبِّ

وعليه، وبالإضافة إلى ما وصل إلينا من أخبار على فى الأغانى. فإننا لا نميل إلى ما استنتجه مصطفى هدارة من أن منهلة كانت ملك يمينه ولكنه اضطر أن يبيعها ، ثم استعلن حبه الدفين بصورة قوية حارة حتى إنه مات أسفاً على فراقها[1]. إذ أنها لوكانت ملك يمينه لما اضطر والده أن يرسل جماعة من التجار إلى مولاتها يبتاعها من جديد . وهكذا تظل الصورة التى رسمها أبو الفرج لحب على ومنهلة — وما نعرف أحداً غيره ترجم له — غير واضحة وبحاجة إلى كثير من الأضواء للكشف عن أكثر جوانبها وأجزائها ، ولكنها على الرغم من هذا تقترب من قصص العذريين الأمويين وتتفق مع بعضها من حيث موت كل من الحبيبين جزعاً على الآخر وبسببه .

٣ — المؤمل بن جميل :

هو المؤمل بن جميل بن يحيى بن أبى حفصة عم الشاعر مروان بن أبى حفصة ، كان فى أيام المهدى ، وكان شاعراً غزلا ظريفاً ، انقطع إلى جعفر ابن سليمان بالمدينة ثم قدم إلى العراق فكان مع عبد الله بن مالك الخزاعى ، ولما ذكر للمهدى حظى عنده [2] .

لكن على الرغم من انقطاعه إلى جعفر فى المدينة ، وإلى عبد الله بن مالك فى العراق ، وحظوته عند المهدى فإن المصادر التى ترجمت له لم تتحدث عن أخباره مع هؤلاء ولم تذكر له من الشعر سوى أبيات غزلية قليلة فى امرأة أحبها .

---

(١) اتجاهات الشعر فى القرن الثانى / ٥٠٧ .

(٢) راجع : الأغانى (ساسى) ١٦ / ١٦٧ ، ومعجم الشعراء ٢٩٩ ، وتاريخ بغداد ١٣ / ١٨٠ ، ومصارع العشاق ٢٤٣ .

وليس يدرى سر هذا ، فهل سكت الشاعر ولم يقل شيئاً فى علاقته بهؤلاء ؟ وهل كانت له أشعار غير ما وصل إلينا ولكنها فقدت ؟ سؤالان يفرض كل منهما نفسه ولكننا لا نملك الإجابة عنهما غير ما نميل إليه من ضياع بعض أخباره وأشعاره .

كان المؤمل يلقب بقتيل الهوى ، ويظهر أنه جاءه هذا اللقب من أبيات قالها . منها قوله [١] .

قلن من ذا ؟ فقلت : هذا الميا نى ، قتيل الهوى أبو الخَطَّابِ
قلن : بالله أنت ذاك يقيناً لا تقل قول مازحٍ لعّاب
إن يكن أنت هو فأنت مُنَانا خالياً كنت أو مع الأصحاب

وقوله [٢] :

أنا ميت من جوى الحـ(م)ـب ، فياطيب مماتى
آن موتى يا ثقاتى فاحضروا اليوم وفاتى
ثم قولوا عند قبرى : يا قتيل الغانيات

لم تذكر المصادر اسم المرأة التى علقها كما أنها لم تكشف عن هُويتها أو ما يشير إليها لا من قريب ولا من بعيد ، ولكنه يتضح أنها كانت تسمى بزينب ، دليل هذا أن هذا الاسم ورد فى أبيات للشاعر ذكرها أبو الفرج فى (أغانيه) ، قال المؤمل [٣] :

يا آحِ من حَرّ الهوى إنما يعرف حرَّ الحُبِّ من جرّبا
أصبحت للحبِّ أسيرًا فقد صعَّدنى الحب وقد صوبا
لا شك أنى ميت حسرة إن لم أزر قبل غدى (زينبا)

---

(١) انظر : الأغانى ١٦ / ١٦٦ والمصادر السابقة فى المواطن السابقة نفسها .
(٢) تاريخ بغداد ١٣ / ١٨٠ ، ومصارع العشاق / ٢٤٤ .
(٣) الأغانى (ساسى) ١٦ / ١٦٦ .

تلك التى إن نلتُها لم أبل من شرَّق الدهر أو غرّبا

يبدو أن مصطفى هدارة لم يطلع على أخبار المؤمل إلا فى (تاريخ بغداد) فلو أنه اطلع عليها فى (الأغانى) لما فاته أن يشير إلى زينب فى هذه الأبيات ولما قال : « ويبدو أنه — المؤمل — استنفد شعره فى حبيبة واحدة لانعرف اسمها »[١] . كما يتضح أن المؤمل وصاحبته كانا يلتقيان بدليل قوله [٢] :

دعى عَد الذنوب إذا التقينا تعالى لا أعد ولا تعدى
فأقسم لو هممت بمد شعرى إلى نار الجحيم لقلت مدى

يرجح أن يكون البيتان من قصيدة فقدت بدليل أن صاحب (الزهرة) أورد ثلاثة أبيات منها من ضمنها البيت الثانى ، وما فى (الزهرة) يدل على شدة حب المؤمل لصاحبته من جهة ، وفراق محبوبته له من جهة أخرى ، قال [٣] :

أمن فقد الحبيب عيناك تبكى نعم فَقْدُ الحبيب أشدُّ فَقْد
برانى الحب حتى صرت عبدًا فقد أمسيت أرحم كل عبد
فأقسم لو هممت بمد قلبى إلى جوف السعير لقلت مدِّى

٤ — ابن رهيمة :

وهو من شعراء الغزل العفيف أيضاً ، ولم يكن بأكثر حظًّا من زملائه فى اهتمام الرواة ومؤرخى الأدب ، بل إنه أقلهم حظًّا على الإطلاق ، إذ لا نكاد نعثر له على أخبار غير ما ورد فى الأغانى من أخبار شحيحة ضيقة ، فكل ما ذكره عنه وهو ما فتح نافذة على حب ابن رهيمة قوله : « كان ابن رهيمة يشبب بزينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ويغنى يونس بشعره ، فافتضحت بذلك ، فاستعدى عليه أخوها هشام بن عبد الملك ، فأمر

---

(١) اتجاهات الشعر فى القرن الثانى ٥٠٨ .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٨ / ١٨٤ .
(٣) الزهرة ٥٣ .

بضربه خمسمائة سوط وأن يباح دمه إن وجد قد عاد لذكرها ، وأن يفعل ذلك بكل من غنى فى شىء من شعره . فهرب هو ويونس ولم يقدر عليهما . فلما ولى الوليد بن يزيد ظهراً ، وقال ابن رهيمة :

لئن كنت اطردتنى ظالما لقد كشف الله ما أرهب
ولو نِلْتَ منى ما تشتهى لقَلّ إذا رضيتْ زينب
وما شئت فاصنعه بى بعد ذا فحبى لزينب لا يذهب[1] »

يتضح من النص أن الشاعر كان من مخضرمى الدولتين . كما يتضح من شعره أنه هويها وهو كبير ، قال [2] :

أقصدت زينب قلبى بعدما ذهب الباطل عنى والغزل[3]
وعلا المفرق شيب شامل واضح فى الرأس منى واشتعل

كان ابن رهيمة صريحاً وصادقاً فى حبه ، لا يجنح إلى التكنية ولا يميل إلى الاستعارة عن صاحبته بغيرها ، قال [4] :

إنما زينب همى بأبى تلك وأمى
بأبى زينب لا أكـ ـنى ولكنى أسمى
بأبى زينب من قا ضرقضى عمداً بظلمى
بأبى من ليس لى فى قلبه قيراط رُحْم

ويبدو أن قصة الحب هذه كانت من جانب واحد ومن جانبه هو ، قال [5] :

أقصدت زينب قلبى وسَبَت عقلى ولبى

---

(١) الأغانى ٤ / ٤٠٥ .
(٢) المصدر السابق ٤ / ٤٠١ .
(٣) أقصده : طعنه فلم يخطىء .
(٤) الأغانى ٤ / ٤٠٣ .
(٥) المصدر السابق ٤ / ٤٠٢ .

تركتنى مستهاماً أستغيث الله ربى
ليس لى ذنب إليها فتجازينى بذنبى
ولها عندى ذنوب فى تنائيها وقربى

كل أشعاره التى فى (الأغانى) قالها فى زينب . ويبدو أن المغنين كانوا يغنون بها جميعاً حتى قال أبو الفرج : «ولابن رهيمة هذا أصوات معروفة بالزيانب»[١] .

وقد أكد ابن رهيمة فى إحدى مقطوعاته حبه الطاهر العفيف كما أكد طهر زينب وعفافها أيضاً ، قال[٢] :

يا زينب الحسناء يازينب يا أكرم الناس إذا تُنْسَبُ
تقيك نفسى حادثات الردى والأُم تفديك معاً والأَب
هل لكِ فى وُدِّ امرئ صادق لا يَمْذُق الوُدَّ ولا يكذب
لا يبتغى فى وده مَحْرَماً هيهات منك العمل الأَريب

كما أكد فى مقطوعات أخرى شدة حبه لها ووجده بها بأبيات تزخر بالعاطفة والصدق ، ومنها قوله[٣] :

فليت الذى يلحى على زينب المنى تعلّقه مما لقيت عشير[٤]
فحسبى له بالعشر مما لقيته وذلك فيما قد تراه يسير

وهكذا عرف القرن الثانى هذا النفر من شعراء الغزل العفيف وهم وإن كانت أخبارهم قليلة إلا أنها تؤكد معنى العفة الذى نقصد إليه ونحن نسلكهم مع شعراء الغزل العفيف . فى كل ما وصل إلينا من أخبارهم وأشعارهم لا نستطيع أن نستنتج غير العفة والصدق ، فقد قصر كل منهم حبه على امرأة واحدة لم يتعدها إلى غيرها ، ثم إنه لا يشم من شعرهم أو يكاد رائحة لحس أو شهوة ، ولكن

---

(١) الأغانى ٤ / ٤٠١ .
(٢) المصدر نفسه ٤ / ٤٠٤ .
(٣) المصدر نفسه ٤ / ٤٠٦ .
(٤) العشير : جزء من عشرة أجزاء أى عشر .

هذا لا ينفى أبداً أن ما وصل إلينا عنهم لا يقوى على إعطاء صورة واضحة المعالم لحبهم الذى كنا نطمع فى المزيد من أخباره فى عصر كالقرن الثانى ملأ شعراء الشهوة والفحش جوانبه بروائح كريهة نتنة بسبب ما أذاعوه فى شعرهم من تهتك وتعهر وفحش ومجون .

أما زعيم هذا الاتجاه العباس بن الأحنف فلم يكن هو الآخر بمنأى عن النقص فى أخباره وأخبار حبه خاصة بالرغم من أنه خلف ديواناً كاملا فى هذا اللون من الغزل .

٥ — العباس بن الأحنف :

أما العباس بن الأحنف فيعد بحق إمام الغزل العفيف والعشاق الشرفاء ، ورافع راية الوجدان السليم فى العصر الذى بلبله إمام الشعراء الخلعاء أبو نواس كما يقول زكى مبارك [١] . وقد كان العباس — كما وصفه القدماء — من الظرفاء ، ظاهر النعمة ، ملوكى المذهب ، شديد الترف ، حسن الهيئة . ولم يكن من الخلعاء المجان ، كان غزلاً ولم يكن فاسقاً ولكنه كان يقبل على الشراب [٢] . اختص العباس بالغزل وقصر معظم شعره عليه وقد لاحظ القدماء هذا ، فقال الجاحظ : « لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ما قدر أن يكثر شعره فى مذهب واحد لا يجاوزه ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف » [٣] . وقال ابن قتيبة : « ولم يكن يمدح ولا يهجو » [٤] . وقال أبو الفرج : « ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى » [٥] . أما ابن خلكان فقال : « لا يوجد فى ديوانه مديح » [٦] .

---

(١) العشاق الثلاثة (ط ١٩٤٥) ١١٠ .
(٢) راجع : الأغانى ٨ / ٣٥٢ ، ٣٥٣ ؛ وزهر الآداب ٤ / ٩٧٠ .
(٣) الأغانى ٨ / ٣٥٤ .
(٤) الشعر والشعراء ٢ / ٨٢٧ .
(٥) الأغانى ٨ / ٣٥٢ و ٣٥٣ أيضاً .
(٦) وفيات الأعيان ٢ / ٢٢٩ .

وانفرد الخطيب البغدادى فقال : « ولم يقل فى المديح والهجاء إلا شيئاً نزراً »[١] . وهو بهذا يكون من أدق القدامى ملاحظة وأقربهم إلى الصحة العلمية فى هذا الخصوص . ففى ديوان العباس مقطوعتان فى مدح الرشيد ، إحداهما فى بيتين فقط[٢] . والثانية فى أربعة أبيات [٣] . وقلة المديح هذه لا تتفق مع ما ذهب إليه ابن تغرى بردى فى قوله : « وكان معظم شعره — العباس — فى الغزل والمديح »[٤] وإلى جانب هاتين المقطوعتين فى المديح نجد فى شعره مقطوعات فى الرثاء ، قال بعضها على لسان الرشيد فى رثاء جواريه . منها مقطوعة فى رثاء هيلانة فى أربعة أبيات فقط[٥] . وإذا صح ما قاله ابن الساعى الخازن البغدادى المتوفى سنة ٦٧٤ هـ من أنه رثاها العباس بن الأحنف بأربعين بيتاً . فأمر له الرشيد بأربعين ألف درهم[٦] . تكون هذه المقطوعة من قصيدة طويلة ضاعت لم يبق منها إلا هذه الأبيات . وثمة مقطوعة أخرى فى رثاء جاريته للرشيد لم يذكر اسمها قالها على لسانه فى أربعة أبيات أيضاً[٧] . كما أنه رثى جاريته ضياء فى مقطوعة فى ثلاثة أبيات[٨] . وللعباس قصيدة طويلة فى سبعة وأربعين بيتاً وصف فيها الكرة والصولجان واللعب بهما ، وتحدث عن لعبه مع فتيان من أبناء الوجهاء والسراة وانصرافهم بعد ذلك إلى مجالس الشراب والغناء[٩] . وهكذا فإن ما وصل إلينا من شعر العباس فى غير الغزل يقع فى أربعة وستين بيتاً توزعت بين المدح والرثاء وما تضمنته قصيدته فى الكرة والصولجان . أما ما تبقى من شعره فى ديوانه ففى الغزل العفيف ؛ وسيكون مصدرنا الرئيسى فى الكشف عن جوانب حب العباس المختلفة ، التى تعرضنا وخاصة فيما يتعلق بصاحبته المسماة فوزاً ، وحقيقة موقف كل منهما من الآخر ، ثم كيف بدأت العلاقة بينهما ونشأت ،

---

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ١٢٧ .
(٢) ديوان العباس / ٥٩ .
(٣) المصدر السابق ١٥١ ، ١٥٢ .
(٤) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٠ م) ٢ / ١٢٨ .
(٥) ديوان العباس ٥٩ — ٦٠ .
(٦) نساء الخلفاء بتحقيق مصطفى جواد) ٥٥ .
(٧) ديوان العباس ٢٠٨ .
(٨) المصدر السابق ١٥٢ .
(٩) المصدر السابق ٢٥٦ .

لأن المصادر القديمة لا تقدم معلومات كافية عن طبيعة هذا الحب وبدايته ، كما أنها لا تكاد تكشف عن أكثر جوانبه التى ما زالت فى حاجة إلى الكشف والتبيين . وإنه لغريب حقاً أن الرواة تحدثوا كثيراً عن محبوبات العذريين الجاهليين والأمويين وكشفوا عن هوياتهن ونسبهن بحيث يقف الباحثون فى حيرة أمام فاطمة المرقّش أو عفراء عروة أو بثينة جميل أو عزّة كثيّر مثلا ، ولكنهم ضنوا بالتفاصيل عن صاحبة العباس بن الأحنف ، فمن فوز تلك ؟ !

شخصية فوز :

روى أبو الفرج الأصبهانى أن فوزاً كانت جارية لمحمد بن منصور الذى كان يلقب بفتى العسكر ثم اشتراها بعض شباب البرامكة وحج بها فلما قدمت قال العباس :

ألا قد قدمت فوز فقرّت عَيْنُ عباس
لمن بشّرنى البشرى على العينين والراس[1]

وفى رواية أخرى أنها كانت لرجل جليل من أسباب السلطان وكان العباس يتشبه فى أشعاره وذكر فوز بما قاله أبو العتاهية فى عُتبة ؛ فحج بها مولاها ، فقال العباس :

يا ربّ رد علينـــا من كان إنساً وزينا
من لا نُسَرُّ بعيش حتى يكون لدينا
يا من أتاح لقلبى هواه شوماً وحَيْنا
ما زلت مذ غبت عنى من أسخن الناس عينا
ما كان حجك عندى إلا بلاءً علينا[2]

ولكن هل كان اسم فوز هو الاسم الصحيح لصاحبة العباس ؟ إذا ما اعتبرنا شعر الرجل واعتمدناه نرى أن فوزاً اسم مستعار ؛ ود الشاعر أن لا يكشف عن

(١) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٥ .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٥ .

الاسم الحقيقى لصاحبته حتى لا يكشف عن هويتها ، وقد لاحظ هذه الملاحظة قبلنا كل من زكى مبارك [١] ، والمستشرق غوستاف غرنباوم [٢] . وفى شعر العباس نفسه أقوال تدعم هذا الزعم ، قال [٣] :

كتمت اسمها كتمان من صان عرضه ... وحاذر أن يفشو قبيحُ التسمُّع
فسميتها فوزًا ولو بُحْت باسمها ... لسمّيْتُ باسمٍ هائل الذكر أشنع

وقال [٤] :

قالوا : كتمت اسمها فانعت محاسنها ... وذاك خطب جليل غير محقور

وقال [٥] :

يا قرة العين يا من لا أسميه ... يا مَنْ إذا خدرت رجلى أناديه

وقال [٦] :

هذا كتاب بدمع عينى أملاه ... قلبى على بنانى
إلى حبيب كَنَيْتُ عنه ... أجلَّ ذكْرَ اسمه لسانى
قد كنت أطوى هواه عندى ... مذ كنت فى سالف الأزمان

ولم يكتف العباس بإطلاق فوز على صاحبته وإنما خاطبها وذكرها بأسماء أخرى لا تعدو أن تكون صفات فى أكثرها ، فذكر ظلوم وظليمة [٧] ، وذات

---

(١) العشاق الثلاثة ١٢٩ ، ١٣٤ .
(٢) حضارة الإسلام (الألف كتاب) ترجمة عبد العزيز جاويد ٣٣٦ .
(٣) ديوان العباس ١٦٩ .
(٤) المصدر السابق ١٤٨ .
(٥) المصدر السابق نفسه ٢٨٤ .
(٦) المصدر نفسه ٢٧٢ .
(٧) ديوان العباس : انظر فى ظلوم على سبيل المثال الصفحات ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ثم انظر فى ظليمة الصفحات ٩٨ ، ١٠١ وغيرها .

الخال [١] ، وسدوم [٢] . وذلفاء [٣] ، ونرجس [٤] ، ونسرين [٥] ، غير أن أكثرها ذكراً كان فوز وظلوم. وربما كان صنيعهُ هذا عن قصد منه زيادة فى التعمية ، وإيغالا فى المغالطة كعادته فى شدة تكتمه فى حبها حتى إذا ما قرأنا شعره ولم ندرك صنيعه فى التكتم والمغالطة شُبِّه لنا أن فوزاً غير ظلوم وهكذا بالنسبة لغيرها ، يقول [٦] :

اشفعى يا ظلوم لى عند فوز ... طالما قد نفَّعتنى ياظلوم
أسقم الله قلبها مثل ما أسـ ... ـقم قلبى ، فإن قلبى سقيم

وفى مقطوعة أخرى نجده يعكس الأمر فيقول [٧] :

جمعتم بفوز شمل من كان ذا هوى ... ولم تجمعوا بينى وبين ظلوم

لكن فى (الأغانى) رواية قد يستفاد منها أن فوزاً هذه كانت معروفة عند غلمان العباس وخدمه ، فماذا يعنى هذا ؟ هل كانت فوز معروفة وأن ما جاء فى شعر العباس من كتمان اسمها والاستعاضة عنه بغيره غير صحيح ؟ وهل الرواية نفسها غير صحيحة ؟

قال أبو الفرج : « أخبرنى جحظة البرمكى قال : حدثنى أبو عبد الله ابن حمدون عن أحمد بن إبراهيم ، قال : حدثنى محمد بن سلام قال : كان فى خلق العباس بن الأحنف شدة فضرب غلاماً له وحلف أن يبيعه فمضى الغلام إلى فوز فاستشفع بها عليه ، فكتبت إليه ، فقال :

يا من أتانا بالشفاعات ... من عند من فيه لجاجاتى
إن كنت مولاكَ فإن التى ... قد شفعت فيك لمولاتى
أرسالها فيك إلينا لنا ... كرامة فوق الكرامـــات [٨]

---

(١) ديوانه ١٩ .
(٢) المصدر نفسه ٢٣٤ .
(٣) نفسه ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) نفسه ٢٧٤ .
(٥) نفسه ٢٧٥ .
(٦) نفسه ٢٣٤ .
(٧) نفسه ٢٤٨ .
(٨) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٦ ثم انظر الأبيات فى ديوان العباس ٦٩ .

قبل البدء فى البحث فى الشخصية التاريخية لصاحبة العباس، والكشف عن هويتها لا بد من الوقوف عند ما كتبته الشاعرة العراقية الدكتورة عاتكة الخزرجى فى هذا الموضوع فى مقالين متتاليين فى مجلة الرسالة . ففى المقال الأول[1] حاولت أن تلقى ضوءاً على شخصية فوز من شعر العباس نفسه؛ فتبين لها أنها من المدينة، استوطنت العراق ولكن صلتها بموطنها الأول لم تنعدم ، ثم إن أصلها عريق ونسبها كريم تنتمى هى وشاعرها إلى نزار ، ثم إنها بعد ذلك هاشمية ، من أسرة مترفة منعمة . بعد هذا راحت تشك فيما رواه أبو الفرج مما يتعلق بفوز من أنها كانت جارية لفتى العسكر محمد بن منصور أو لواحد من الوجهاء كما تقدم ، وحجتها أنها لم توفق إلى الاهتداء إلى الشخصية الأولى، أما الثانية فمجهولة الاسم . وأحسب أنها حجة ضعيفة لا نستطيع بموجبها أن ننفى أن صاحبة العباس لم تكن جارية لمجرد أن ابن منصور لا نعرف عنه شيئاً أو أن سيدها الآخر مجهول الاسم، فكم من جارية لا نعرف عنها ولا عن صاحبها شيئاً، وهذا ليس بغريب فى عصر كثرت فيه الجوارى كثرة مفرطة ، تقول عاتكة : « إن صاحبة العباس هذه لو كانت جارية أو امرأة عادية لما كلف الشاعر نفسه عناء هذا التكتم فأحاطها بهذا السياج فظلت مختفية عنا طول هذه العصور، وبقيت هكذا إلى اليوم لغزاً يرقد فى ضمير الزمن »؛ وانتهى بها الأمر فى مقالها الأول إلى القول « إنها لا بد أن تكون سيدة من سيدات البلاط العباسى ، وهذا وحده يمكن أن يفسر لنا سبب حيطة الشاعر فى كتمانه هواه وإحاطة شخص الحبيبة بهذا الجو من الغموض ». ولكنها لم تقف فى مقالها الثانى[2] عند هذا الحد مكتفية بقولها إنها كانت سيدة من سيدات البلاط العباسى فحسب ، بل رأت أنه لا بد من الكشف عن هذه السيدة التى هى عندها عُليّة بنت المهدى أخت الخليفة الرشيد ، وقد اعتمدت فى استنتاجها هذا على موازنة أخبار علية وأوصافها كما أوردها

---

(١) مجلة الرسالة . السنة الحادية والعشرون . العدد (١٠٣٥) ١٤ نوفمبر ١٩٦٣ (ص ١٣ – ١٨) .

(٢) مجلة الرسالة . السنة الحادية والعشرون . العدد (١٠٣٦) ٢١ نوفمبر ١٩٦٣ (ص ١٣ – ١٧) .

صاحب الأغانى بالأوصاف والخصائص التى ذكرها العباس لصاحبته فى شعره ، فتبين لها أن الشبه كبير ، وهو ما حملها على القول بأن صاحبة العباس كانت علية نفسها . ومن موازنات عاتكة أن عُلَيّة بنت جارية مغنية من المدينة هى مكنونة جارية المروانية ، وكانت من أحسن الناس وأظرفهم ، وكانت شاعرة تقول الشعر الجيد [١] . ثم تقول إن هذه الأوصاف موجودة فى صاحبة العباس ذكرها فى شعره ، وفى (الأغانى) « كانت علية تحب أن تراسل بالأشعار من تختصه » [٢] . ومن شعر العباس لاحظت عاتكة أنه كانت بينه وبين صاحبته مراسلات ومراسلات شعرية أيضاً . أظن أن هذا غير صحيح ، فليس فى شعر العباس ما يدل على أن صاحبته كانت شاعرة أولا ، ثم إن ما فى شعره عن الرسائل والمراسلات بينهما لا يشير إلى أنها كانت مراسلات شعرية ، والشاعر لم يكن يتحدث إلا عن مضامين هذه الرسائل سواء كانت مرسلة منه أم منها ، وعليه فإن هذا الدليل مردود من أساسه .

ومن موازنات عاتكة أن فى (الأغانى) ما يدل على أن (علية) كانت ورعة تقية ، حسنة الدين ، وكانت لا تغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة ، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن [٣] ؛ ثم إنها كانت تصوم وقد ذكرت هذا فى شعرها [٤] ، ثم إنها حجّت فى أيام الرشيد [٥] . وفى ديوان العباس شعر يبين تقوى صاحبته وصلاتها وصيامها وحجها . ثم بالإضافة إلى هذا وقعت عاتكة عن طريق استقراء الديوان — كما تقول — على شواهد أخرى. وقفت عند قول العباس :

عصبت رأسها فليت صُداعاً قد شكته إلىّ كان براسى

ثم فنزعت بعد ذلك إلى (الأغانى) لتقف عند ما رواه أبو الفرج من أنه

---

(١) الأغانى ١٠ / ١٦٢ .
(٢) المصدر السابق ١٠ / ١٦٣ .
(٣) المصدر السابق ١٠ / ١٦٣ .
(٤) انظر : المصدر السابق ١٠ / ١٨٣ .
(٥) المصدر السابق ١٠ / ١٨١ .

كان فى جبين (عُلَيَّة) فضل سَعَة اتخذت من أجلها العصائب المكللة بالجوهر تستر جبينها [١] . وقالت عاتكة : « وقد لا يصعب عليك بعد هذا أن تتفهم سر تعلل المحبوبة بالصداع أمام شاعرها تعتذر به عن العصابة تشد بها رأسها » ولعل عاتكة لم تنتبه جيداً إلى حقيقة العصابة التى لم يرد ذكرها إلا مرة واحدة؛ وليس هناك ما يشير إلى أنها كانت تتخذها دائماً ، أورد أبو الفرج : « وجّه العباس ابن الأحنف رسولاً إلى فوز ، فعاد فأخبره أنها تجد صداعاً وأنه رآها معصوبة الرأس ، فقال العباس :

عصبت رأسها فليت صداعاً قد شكته إلىّ كان براسى
ثم لا تشتكى وكان لها الأجـ ـر وكنت السقام عنها أقاسى » . [٢]

وهناك شاهد بالغت فيه عاتكة عندما قالت إن أبا الفرج يروى لنا رواية تفيد : « أن فوزاً كانت "كثيراً" ما تسخر من شيب صاحبها وتعيّره به » أما الذى فى (الأغانى) فإنه روى عن العباس أنه قال : « لقد لقيتنى فوز اليوم فقالت لى : ياشيخ ، وما قالت ذلك الزمن حادث ملال » [٣] فقال له أصحابه : « هوّن عليك فإنها امرأة لا تثبت على حال وما أرادت إلا العبث بك والمزاح معك » [٤] . استغلت عاتكة هذا الخبر لتقول إن العباس يسبق (عُلَيَّة) بست وعشرين سنة ، فلا عجب أن تسخر من شيبه تدل على كهولته بصباها الغض النضير . وآخر شواهد عاتكة ما ورد فى شعر العباس من أن جوارى المهدى والخيزران تشفعن له عندها . قال [٥] :

طال ليلى بجانب البستان مع جوارى المهدى والخيزران
أيها العاشقون قوموا جميعاً نشتكى ما بنا إلى الرحمٰن
إن فوزاً لما أتاها الجوارى يتباكينى لِمَا قد شجانى

---

(١) المصدر السابق ١٠ / ١٦٢ .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٦ والشعر فى ديوانه ١٦٢ .
(٣) و (٤) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٦ — ١٣٧ .
(٥) ديوان العباس ٢٦١ — ٢٦٢ .

وتعطفنها علىَّ ويحلفـ ـن على ما ذكرن بالأيمان
أرسلت باللبان قد مضغته فوق تفاحة على ريحان. إلخ

لكن هل تستطيع الجوارى أن تشفع فى مسألة كهذه عند أميرة هن من جواريها ؟ وهل يجرؤن أن يتحدثن معها فى مثل هذا الحديث ؟ وحتى لو كان صحيحاً فهل تستطيع الجوارى كتمانه وعدم التحدث به ولو لبعضهن ؟ وهنا لا بد من أن يتسرب النبأ ويشيع ولو شاع وانتشر لكان له شأن كبير . انتهت عاتكة من كل ما تقدم إلى القول : « وليس بعجيب بعد ذلك أن تبقى علاقة الشاعر بأميرة مثل هذه علاقة حب أفلاطونى عفيف وأن يعانى شاعر من هواه المحروم ما عاناه » ؛ ولكنها لم تدر أنها بهذا تسىء إلى العباس من حيث لا تحتسب لأنها تربط عفته بعلاقته بأميرة من أميرات البلاط العباسى ، فهل كان من الممكن — على هذا الأساس — أن يكون العباس شيئاً آخر لو كانت علاقته بغير أميرة ؟ !

بعد هذا العرض لما ذهبت إليه عاتكة الخزرجى لا بد من كلمة تقال فى الموضوع ؛ فالذى أراه أنها تعسفت التفسير وراحت تلتمس له الأسباب البعيدة وهذا يفرض مناقشتها مناقشة قد تبطل زعمها وما ذهبت إليه ، وقد ناقشناها فى بعض المسائل من خلال عرض رأيها ونستكمل معها المناقشة الآن فنبدأ من النهاية ومن تاريخ وفاة العباس بن الأحنف . إن كتب الأدب تختلف فى تحديد سنة وفاته تحديداً ثابتاً [1] ، ولكن مسألة التحديد هذه لا تهم كثيراً ما دامت تلك المصادر تحصر وفاته ما بين سنتى ١٨٩ ، ١٩٣ للهجرة أو بعدها بقليل .

---

(١) فى الأغانى رواية تقول : إنه مات سنة ثمان وثمانين ومائة هو وإبراهيم الموصلى والكسائى النحوى وهشيمة الحمارة فى يوم واحد ، ولما رفع الخبر إلى الرشيد كلف المأمون بالصلاة عليهم فقدم العباس بن الأحنف (الأغانى — ساسى — ٥ / ٤٣) ، فقد أورد ياقوت هذا الخبر أيضاً (معجم الأدباء ١٢ / ١٣٣) ، وابن خلكان (وفيات الأعيان ٢ / ٢٣١) ، وابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة — ٢ / ١٢٨) ولكنه لم يقتنع به ، وقال : إن وفاته تأخرت عن وفاة هؤلاء بمدة طويلة ، محتجاً بما رواه المسعودى عن وفاة العباس بالبصرة (مروج الذهب ٤ / ١١٠ — ١١١) . وقيل إنه مات سنة ١٩٢ هـ ببغداد (انظر : معجم الأدباء ١٢ / ١٣٣ ووفيات الأعيان ٢ / ٢٣٠) كما قيل إنه توفى سنة ثلاث وتسعين ومائة (شذرات الذهب ١ / ٣٣٤) ، ثم قيل إن وفاته كانت بعد سنة ١٩٢ هـ لأن جماعة رأوه ببغداد بعد موت الرشيد الذى مات سنة ثلاث وتسعين ومائة (انظر : معجم الأدباء ١٢ / ١٣٣ ووفيات الأعيان ٢ / ٢٣١) .

فى معجم الأدباء عن أبى بكر الصولى وغيره أن العباس مات وسِنُّهُ أقل من ستين سنة [١] . أما علية بنت المهدى فى الأغانى أنها ولدت سنة ١٦٠ هـ وتوفيت سنة ٢١٠ أو ٢٠٩ [٢] . فإذا ما افترضنا أن الفتاة لا تلتفت إليها الأنظار إلا بعد سن البلوغ يكون العباس فى هذه الحال قد دخل فى العقد الرابع من عمره ، وهنا يستبعد أن تلتفت فتاة أميرة من مثل علية إلى رجل يكبرها بمثل عمرها تقريباً ، ثم كيف نوفق بين هذا — إن صح — وبين ما نجده فى شعر العباس نفسه من أن حبل المودة امتد بينهما وهما صغيران ، قال [٣] :

تعرض لى الهوى غِرًّا فشيَّبنى على صغرى
وكان هواك لى قدَرًا فكيف أَفِرُّ من قدرى

وقال [٤] :

ويامن تعلقته ناشئاً فشبت وما آن لى أن أشيبا

وقال [٥] :

يا فوز هل لك أن تعودى للذى كنا عليه منذ نحن صغار
فلقد خصصتك بالهوى وصرفته عمن يحدث عنكم فيغار

وثمة دليل آخر نستقيه من أخبار عُلَيَّة ، فقد قيل إنها اختصت اثنين من خدمها وكانت تقول فيهما الشعر وهما (طلّ) و (رشا) ، فغضب الرشيد عليها لما سمع بخبرها وحلف عليها ألا تكلم طلاً ولا تسميه باسمه [٦] ، ولكنه عاد وسمح لها [٧] . فلماذا ذكر الرواة علاقتها وخبرها مع هذين الخادمين وأغفلوا ذكرها مع العباس وأخباره وعلاقته بها — إن كانت له علاقة — ؟

---

(١) معجم الأدباء ١٢ / ١٣٣ .
(٢) الأغانى ١٠ / ٨٥ .
(٣) ديوان العباس / ١٥٥ .
(٤) ديوان العباس / ١٠ .
(٥) نفسه / ١١٧ .
(٦) الأغانى ١٠ / ١٦٧ .
٧) المصدر السابق ١٠ / ١٦٤ .

الحقيقة أن فى شعر العباس مايمكّن من الكشف عن حقيقة صاحبته وهويتها ولكن ما عرف عنه من تكتم وحب فى التستر والتقية والمغالطة يحول دون التسليم المطلق بكل ما جاء فى شعره فيما يتعلق بهذه المسألة خاصة . وربما كان المستشرق الفرنسى بلاشير على حق لما قال : « ولعل العباس لم يحى فى مغامراته التى أنشدها فى شعره ، ومن المحقق أنه لم يكن لتلك المغامرات ما رسمه لها من صور ، ولكنه تخيلها فى ألوان رقيقة مثلتها أشواقه العلوية فلما استحالت شعراً أصبحت حقيقة »[١] . ولما قال ما ترجمته : « أما عن المرأة التى يتحدث عنها فهى معروضة فى قالب أسلوبى " يمكن أن تكون خيالية " ولذلك لا نستطيع القول فيما إذا كان الشاعر ينشد أشعاراً على أنها قوالب أو "كلاشيهات" أو أنها تعبر عن تجربة حقيقية »[٢] .

فى شعر العباس ما يدل على أن صاحبته تلك انتقلت إلى يثرب — وهذا يوافق ما فى (الأغانى) — ثم إنها كانت فتاة منعمة مخدومة تمشى فى موكب من الوصائف ، قال[٣] :

أمست بيثرب نفسى عند جاريةٍ حوراء تُنْمى إلى الغُرِّ المسامِيح
يا حسنها حين تمشى فى وصائفها كأنّها البدر يبدو فى المصابيح

وقال[٤] :

كأنّها حين تمشى فى وصائفها تخطوعلى البَيْض أو خُضر القوارير

وقال[٥] :

صادت فؤادى مكسال منعمة — كالبدر حين بدا — بيضاءُ معطار

ثم إنها بالإضافة إلى ذلك كانت تسكن القصور ، وما أكثر ما كان يراها

---

(١) انظر : تصدير بلاشير لديوان العباس بن الأحنف بتحقيق عاتكة الخزرجى .
(٢) العباس بن الأحنف . Tfie Encyclopaedia of Islam (New edition)
(٣) ديوان العباس ٧٣ ، ثم انظر ص ٨٨ أيضاً .
(٤) ديوان العباس ١١٣ .
(٥) المصدر السابق ١٠٨ .

تطل من شرفة قصرها وإلى جانبها وصاؤها ، قال [١] :

وتشرفت من قصرها فلمحتها ... فلأسألن عن النعيم الأكبر
وكأن نسوتها الكواعب حولها ... زهرُ الكواكب حول بدر أزهر

وقال [٢] :

ألا أشرفت فوز من القصر فأنظر ... إلى من حباك الودّ غير مكدّر
ولما رأت ألاّ وصول إلى الهوى ... تراءت من السطح الرفيع المحجر

وقال [٣] :

بأبي وأمي غِـرة أبصرتها ... تلك العشيّة فوق سطح مُشْرف
نظرت من السطح الرفيع وحولها ... بيض الوصائف كالظباء الكُلَّف

لعل هذه السمات وغيرها مما تقدم هي التي أغرت عاتكة في أن تقول إن صاحبة العباس ما كانت إلا سيدة من سيدات البلاط العباسي وإنها (عُلّية) نفسها ، ولكن ما الغريب في أن تكون فتاة العباس أية فتاة قصرية منعمة أخرى غير (عُلّية) ؟ هل كانت سكنى القصور عند العراقيين في ذلك الوقت تقتصر على البيت المالك وحده ؟ ألا يجوز أن تكون فتاة لأحد الموسرين الأغنياء من رجال الطبقة الأرستقراطية أو أن تكون جارية له كمحمد بن منصور مثلا أو غيره ؟ ثم ألا يصح أن تعد أن لفظة (قصر) يمكن أن تطلق على كل بيت كبير فخم وإن لم يكن من قصور الخلفاء والأمراء وأتباعهم ؟ لا يستبعد هذا إذا ما عرفنا أن هذه اللفظة ما زالت تطلق إلى الآن في العراق على كل بيت كبير فخم جميل حتى ولو لم يكن صاحبه من ذوي السلطان وأرباب الحكم والأمر ، وليس بغريب أن تكون اللفظة المستعملة في العراق إلى الآن من بقايا الميراث اللغوي في تلك الفترة .

---

(١) المصدر نفسه ١٢١ .
(٢) المصدر نفسه ١١٩ .
(٣) المصدر نفسه ١٨٧ .

يتردد فى شعر العباس لفظ « الجارية » كثيراً من مثل قوله [١] :

أبكى ومثلى بكى من حب جارية ... لم يجعل الله لى فى قلبها لينا

وقوله [٢] :

إنما أبكى على جارية ... قادت القلب إليها بزمامْ

وقوله [٣] :

من حب جارية لهجت بذكرها ... خوف الفراق فصرت كالمتعلق

وقوله [٤] :

يا من لحران مشغوف بجارية ... كالشمس تبدو ضحاءً ذات إشراق

ولعل أوضح استعمال للفظة جارية وأكثر دلالة عليها ما يتبين من قول العباس [٥] :

إنى أُجِلُّ ظلوماً أن يكون لها ... بين الجوارى إذا قوّمتها ثمن
وما قرنتُ بها فى مجلس حسناً ... إلا بحسن ظلوم يقبح الحسن

ثم ماذا يعنى قول العباس أيضاً [٦] :

ألا جعل الله الفدا كلّ حرةٍ ... لفوز المنى إنى بها لمعذَّبُ

فهل بعد هذا من داعٍ لأن ندير لفظة الجارية فى شعر العباس على معناها القديم وهو المرأة الغنية الشابة على ما جاء عند ابن منظور والفيروز آبادى كما فعلت عاتكة الخزرجى لتثبت أن صاحبة العباس لم تكن جارية ؟ ! هنا لا بد

---

(١) ديوان العباس ٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ٢٣٤ .
(٣) نفسه ١٩٤ .
(٤) نفسه ١٩٢ .
(٥) نفسه ٢٦٤ .
(٦) نفسه ١٣ .

من الوقوف عند رواية أوردها الغزولى صاحب (مطالع البدور) عن المبرد وغيره من أن جماعة من الفتيان اكتروا داراً على الطريق ببغداد ، كانوا يجتمعون فيها لشرب النبيذ وقضاء أوقاتهم فيها ، ويقال إن العباس دخل عليهم مرة فدار بينهم الحديث التالى : « ألا أخبركم كيف عرفتكم؟ قلنا إنا لنحب ذاك ، قال : أحببت فى جواركم جارية وكان سيدها ذا عزائم . وكنت أجلس لها فى الطريق ألتمس اجتيازها فأراها حتى أخلفنى الجاوس على الطريق، ورأيت غرفتكم هذه فسألت عن خبرها ، فخبرت عن ائتلافكم ومساعدة ، بعضكم بعضاً . فكان الدخول فيما أنتم فيه آثر عندى من الجارية . فسألناه عنها فخبرنا. قلنا ما نحيد عنها لك حتى نظفرك بها . فقال: ياإخوتى إنى والله ما ترون منى من شدة المحبة والكلف بها ما قدرت فيها حراماً قط ، ولا تقديرى إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمن الله بثروة فأشتريها »[1] . لم تقف الرواية عند هذا الحد ، ومما جاء فيها أن العباس كان يقول الشعر فى الجفوات التى كانت تحدث بين الخلفاء وأزواجهم ، ويقال إنه نظم شعراً فى الجفوة التى حدثت بين الرشيد وماردة فقال[2] :

العاشقان كلاهما متغضب ... وكلاهما متشوق متطربُ
صدت مُراغِمة وصد مُراغماً ... وكلاهما مما يُعالج مُتْعبُ
راجع أحبتك الذين هجرتهم ... إن المتيم قلما يتجنب
إن التجنب أن تمكن منكما ... دبَّ السُّلو له فعزَّ المَطلبُ

ويقال إن كلا من الرشيد وماردة أعطاه مالاً بعد رجوع كل منهما إلى الآخر . وتمضى الرواية فتقول إن العباس جمع إلى إخوانه أصحاب الغرفة فقال لهم : « فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشتريها . فمشينا إلى صاحبها ، وكانت جارية جميلة حلواء لا تبخس شيئاً ، أكثر ما فيها ظرف اللسان ، وتأدية الرسائل ، وكانت تساوى على وجهها مائة وخمسين ديناراً ، فلما رآنا مولاها أسامنا فيها خمسمائة دينار ،

---

(١) مطالع البدور ١ / ١٩٤ .
(٢) المصدر السابق ١/ ١٩٥ وديوان العباس / ٢٨ .

فأوحيناه بالعجب فحط مائة ثم حط مائة ، وقال العباس : يا فتيان إنى والله أقسم أحتشم بعدما قلتم ولكنها حاجة فى نفسى بها يتم سرورى ، فإن ساعدتم فعلت . قلنا له : قل . قال : هذه الجارية أنا عاينتها منذ دهر وأريد إيثار نفسى ، بها يتم سرورى ، فإن ساعدتم فأكره أن تنظر لى بعين من قد ماكس فى ثمنها فأعطيه فيها خمسمائة دينار كما شاء . قلنا فإنه قد حط مائتين ، قال وإن فعل ، فصادفنا من مولاها رجلا حرًّا فأخذ ثلثمائة دينار وجهزها بالمائتين . فما زال لنا إلى أن فرق الموت بيننا »[1]. عند هذا القدار تنتهى الرواية التى لم تكشف لنا عن اسم الجارية أو اسم مولاها . ويفهم منها أن العباس اشتراها . ولكن ماذا كان مصيرها بعد الشراء ؟ هذا ما لا نعرفه ، غير أن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل هذه الجارية هى نفسها فوز صاحبة العباس ؟ أو هل هى واحدة غيرها ؟ فى الواقع أننا لا نملك الإجابة عن هذا ؛ فإذا كانت غير فوز فإننا مضطرون لأن نصدق ما جاء به النويرى عن أبى جعفر النخعى من أنه قال : «كان العباس بن الأحنف يهوى عنان جارية النطاف (كذا)[2] ، فجاءنى يوماً فقال لى : امض بنا إلى عنان ، فصرنا إليها فرأيتها كالمهاجرة له . فجلسنا قليلا ثم ابتدأ العباس ، فقال :

قال عباس وقد أجهد من وجْدٍ شديد
ليس لى صبر على الهجر ولا لذع الصدود
لا ، ولا يصبر للهجر فـــؤاد من حديد

فقالت عنان :

مَنْ تراه كان أغنى منك عن هذا الصدود
بعد وصل لك منى فيه إرغام الحسود
فاتخذ للهجر إن شئـ ـت فواداً من حديد
ما رأيناك على ما كنت تجنى بجليد

---

(١) مطالع البدور ١ / ١٩٦ .
(٢) فى العقد الفريد ٦ / ٥٧ ، ٥٨ « جارية الناطفى » وهو الصحيح .

فقال عباس :

لو تجودين لصبٍّ راح ذا وجدٍ شديد
وأخي جَهْلٍ بما قد كان يجنى بالصدود
ليس من أحدث هجرا لصديق بسديد
ليس منه الموت إن لم تصليه ببعيد

قال : فقلت للعباس : ويحك ما هذا الأمر ؟ قال : أنا جنيت على نفسي بتنايهي عليها . فلم أبرح حتى ترضيتها له[١]. ولكن ما طبيعة ذلك الحب ومتى بدأ وكيف بين العباس وعنان؟ لسنا ندري من أمره شيئاً ، وليس لنا أن نشك في هذه الرواية علماً بأن النويري انفرد بها ؟ لأن الشعر على قَرِيِّ العباس بن الأحنف ونمطه . أشارت عاتكة الخزرجي إلى هذا الخبر فقالت : « ومن يدري فاعل العباس عرف عنان هذه قبل فوز وأن صلتها به كانت خفيفة واهية حتى إن مؤرخي الأدب أهملوا ذكرها » . لا يسع الباحث بعد هاتين الروايتين — إن صحتا — إلا أن يقول : إن العباس حاد عن مذهب التوحيد في الحب إذا ما ثبت أنه أحب عنان ، أو الجارية التي ذكر خبرها الغزولي إن كانت غير فوز صاحبته ، وهذا يوافق ما أشار إليه بلاشير عجلا وهو يخاطب محققة ديوان العباس فقال : « فكم من مرة صارحتني بإعجابك بهذا الشاعر الظريف حتى إذا ما ظهر مني شك بخلوص هواه العذري وصفائه انبريت للدفاع عنه بحماسة شديدة »[٢] . ثم أكد شكه هذا فيما بعد عندما كتب عن العباس في دائرة المعارف الإسلامية فلاحظ أن شعره لا يتضمن حبًّا مثاليًّا في مجموعه وإنما يتحدث عن حب القيان أحياناً [٣] . هل نصدق بعد كل هذا ما ذهب إليه العباس في شعره من أن حب الجواري ليس من شغل مثله ولا من شأنه ؟ وهل كانت صاحبته غير جارية حقًّا وإنما أراد التمويه والمغالطة حين قال [٤] :

---

(١) نهاية الأرب (ط دار الكتب ١٩٢٥ م) ٥ / ٧٨ .
(٢) انظر : تصدير بلاشير لديوان العباس بن الأحنف .
(٣) The Encyclopaedia of Islam (New edition).
(٤) ديوان العباس ٨٦ .

زعم الجاهلون بى أن قلبى بالجناب الشرقى صَبٌّ عميد
ليس عِشْق الإماء من شغل مثلى إنما يعشق الإماء العبيدُ
لا وفاء ولا حفاظ. ولكن كُذِّب الود ما لهن عهود
صِلْ إذا ما وصلت حُرَّة قوم شرَّفَتْها آباؤُها والجدود
ليس لى يا ظلوم غيرك هَمٌّ أنت همِّى طريفُه والتليدُ

ملامح فوز وصفاتها كما يعكسها شعر العباس :

أ (الجمال) :

لم تتحدث المصادر بشيء عن ملامح فوز أو صفاتها ، بل سكتت عنها كما سكتت عن أخبارها . ولكن شعر العباس هو المصدر الوحيد الذى يمكن أن يستشف منه بعض صفاتها وملامح حياتها ، فقد تقدم أنها كانت قصرية مترفة منعمة ، هيئت لها كل أسباب النعمة والرفاه ، أما عن جمالها فقد وصفها العباس وتحدث عن جمالها ، وهو وإن ضَنَّ باسمها الحقيقى والكشف عن هويتها الصحيحة لم يغب عن باله أن الناس لا بد من أن يتساءلوا فيما بعد عن سر المرأة التى شغلته وملكت عليه زمام نفسه ، فقال [1] :

يا من يسائل عن فوز وصورتها إن كنت لم ترها فانظر إلى القمر
كأنما كان فى الفردوس مسكنها صارت إلى الناس للآيات والعبر
لم يخلق الله فى الدنيا لها شبَهاً إنى لأحسبها ليست من البشر

يلاحظ أنه بالغ فى وصفها فى البيت الأخير ، ولا تثريب ، فهذا ديدن المحبين وأسلوبهم فلا يكاد الأمر يخلو من مبالغة عندهم . ركز العباس على وصف جمالها ومفاتنها ، فها هو يتحدث عن حسن وجهها وجمالها بعامة فيقول [2] :

تمت وتم الحسن فى وجهها فكل حسن ما خلاها محال

---

(١) المصدر السابق ١٤١ ثم انظر ٢٨٩ أيضاً .
(٢) ديوان العباس ٢٢٨ .

للناس فى الشهر هِلالٌ ولى فى وجههـا كل صباح هلال

ليس أدل على افتتانه بجمالها وشغفه بها من الصورة اللطيفة التى رسمها فى بيتيه التاليين لما شبهها بالبدر وأضاف إلى أنها تزيد على البدر فى أنه ليس له عين مكحلة أو محاسن لفظ تبعث السقم فيمن تكلمه أو تتحدث إليه قال[١] :

قالت ظلوم وما جارت وما ظلمت إن الذى قاسنى بالبدر قد ظلما
البـدر ليس له عينٌ مكحلـة ولا محاسن لفظ تبعث السقما

ويخبر العباس أنها بسبب جمالها كانت تتيه عليه أحياناً وتتراجع عن إتيانه . قال[٢] :

تاهت علينـا بأن تمت محاسنها خَوْد تكَملُ فى أعطافها الفتن
همّت بإتياننا حتى إذا نظرت إلى المرآة نهاها وجههـا الحسن
ما كان هذا جزائى من محاسنها أغرت بى الشوق حتى شفّنى الشجن

ثم يشير إلى أن النساء كانت تحسدها لجمال وجهها :

ما قوّمتْك ملوك أرضٍ قيمـةً إلا ارتفعـتِ وقصّرَ التقويم
وجه يكل الطرف عنه إذا بدا هو بالعفـاف وبالتقى موسوم
يحسدن وجهك يا ظلوم جماله هيهات مالك فى الجمال قسيم[٣]

(ب) العفة :

العفة ميزة أخرى من المزايا التى تحدث عنها العباس عنده وعند صاحبته . فى أكثر من مناسبة يؤكد هذا المعنى ويلح عليه فيظهر صاحبته ونفسه خليين من كل فاحشة وسوء ، قال[٤] :

---

(١) المصدر نفسه ٢٥٣ .
(٢) المصدر نفسه ٢٨٠ .
(٣) المصدر نفسه ٢٣٦ .
(٤) المصدر نفسه ٢١٠ .

فيارَب لا تشمت بنا حاسدًا لنا ... يراقبنا من أهل فوز ولا أهلى
وما بيننا من ريبة فيراقبنا ... ولا مثلهـا يرمى بسوء ولا مثلى
وإنى لأرعى حق فوز وأتقى ... عليها عيون الكاشحين ذوى الختل
وإنى وإياها كما شفَّنا الهوى ... لأهل حفاظ لا يُدَنَّس بالجهل

وقال[1] :

إذا ذكر النساءُ بحسن حـالٍ ... فهن لها الفـدا فى كل حال
مطهَّرة من الفحشـاء تُنْمى ... إلى أهـل المكـارم والمعـالى

لهذا نجده لا يرى من بأس فى الحب العفيف الذى يبرأ من الفحش ويبتعد عنه ، يقول[2] :

وما يرى فى وصال اثنين قد شغفا ... ـ ما لم يميلا إلى الفحشاء ـ من عار

ثم إنه يفصح عن مسلكه وتصرفه وما فى نفسه للمحبوبة مستأذناً إياها بالزيارة قائلا[3] :

أتأذنـون لصب فى زيارتـكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوءَ إن طال الجلوس به ... عَفُّ الضمير ولكنْ فاسقُ النظر

حتى إذا ما التقيا فإنهما يتشاكيان ما فى نفسيهما ويتبادلان الأحاديث فى عفة ونقاء :

إذا التقينا شكونا ما نكابده ... فى عفة ، وحديث من هنا وهنا
لو تسمع الطير ما نشكو عكفن بنا ... كما عكفن بداود الذى فُتِنَا
فمـا تزال أشيـاء نحـدثها ... تكون للناس فيما بعدنا سننا[4]

---

(١) ديوان العباس ٢١٨ .
(٢) المصدر نفسه ١١١ .
(٣) المصدر نفسه ١٤٧ .
(٤) المصدر نفسه ٢٧٠ .

(ح) التقوى والصلاح :

كما كانت فوز حسنة فى خَلْقها كانت حسنة فى خُلُقها إذ جمعت بين العفة والتقى . يظهر من شعر العباس أنها كانت تقية حسنة الدين ، تقوم بالواجبات الدينية وتؤدى الفروض فى أوقاتها من صلاة وصيام وحج . يقول العباس إنها كانت تتحرج من أن تصله فى شهر الصيام :

تحرَّجْتِ أن تصلى فى الصيا م تقوى ورُمْت لقتلى مراما
فما تبتغين بطول الصيام إذا أنت أوردت نفسى الحِماما[1]

وقال[2] :

لو علمنا أن الصيام الذى ين سيكم وَصْلنا قَلَيْنا الصِّياما

كما أنها كانت تترك الكتاب والرد على رسائله لتؤدى فريضة الصلاة :

نبذت مكاتبتى ورجع رسالتى وتنورت مصباحها فى المسجد[3]

ثم تحدث عن حجها وما تركته من أثر فى نفسه طيلة غيابها حتى إنه لم يكن يطيق صبراً بقدر ما ضاق ذرعاً . قال[4] :

ما زلت مذ غبت عنى من أسخن الناس عينا
ما كان إ حَجُّكِ هذا إلا بلاءً علينا

وهناك ملامح أخرى لشخصية فوز يعكسها شعر العباس تدل على أنها كانت مثقفة متعلمة تراسله وتكتب إليه تجدها فى الحديث عن المظاهر الحضارية فى غزل العباس .

---

(١) المصدر نفسه ٢٤٤ .
(٢) ديوان العباس ٢٤٧ .
(٣) المصدر نفسه ٨٩ .
(٤) المصدر نفسه ٢٦٥ .

العلاقة بين العباس وفوز :

لا تتحدث المصادر بشيء عن طبيعة العلاقة بين العباس وفوز، ولكن لا نعدم أن نلتمس إليها السبيل فى شعر العباس ، فقد استشففنا من شعره فيما تقدم أنه علقها أيام كانا صغيرين . أما كيف كانت العلاقة ، فالذى يظهر أنه عشقها على السماع والوصف فى بداية الأمر دون أن يراها ، قال[١] :

أوقع بى الحب قول واصفةٍ ياليتهـا لم تقل ولم تصف

وقال[٢] :

يا من تعلقه قلبى ولم يره إنى دعانى إليك الحين والقدر

وأحسب أن فى هذا دليلا جديداً على أنها لم تكن علية بنت المهدى ، فما أظن أن شاعراً كالعباس كان من المقربين إلى أخيها الرشيد فاته أن يراها حتى توصف له أو يسمع عنها وهى إلى هذا الشاعرة والمغنية المعروفة .

مهما كانت الطريقة التى تعرف بها الشاعر على صاحبته فإن العلاقة قامت بينهما ويظهر أنها كانت قوية متينة فى بدايتها ، وهنا لا بد من عرض موقف كل منهما من الآخر ومدى قوته كما يعكسه لنا شعر الرجل . فلو حاولنا أن نستفيد من آداب الحب وشروطه عند القدامى من مثل ابن داود الظاهرى وابن حزم وابن قيم الجوزية لوجدنا أن أكثرها يتوفر فى حب العباس كما يتضح من شعره .

من آداب الحب التى نجدها عند العباس الكتمان، فقد وجدناه يتكتم فى كل شيء فأخفى اسم محبوبته وضن علينا بالكثير من معالم شخصيتها التاريخية مما جعل البحث عنها كخبط عشواء وحاطب ليل . وليس يدرى سر هذا الكتمان الذى لعب دوراً فى حب العباس فى عصر لم يعد فيه للكتمان بين المحبين كبير نصيب ، لكن الذى يبدو أن كتمانه جاء وفقاً لما عند صاحب الزهرة الذى يدعو إلى الكتمان

---

(١) المصدر نفسه ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق ١١٥ .

فى الحب خوفاً على المحبوب من أن يتعرض لمقالات السوء ووشايات الناس . وتجنيبه مواطن السعاية والارتقاب . ولكنه إذا ما تسربت من المحب بعض أسرار حبه فهو غير ملوم فى هذه الحال لأن الوجد يكون قد « تملكه تملكاً يزول معه الكتمان فيكون ضابطاً لنفسه مؤثراً لكتمان سره ما دام التمييز معه إلى أن يغلبه من الوجد ما لا يستطيع أن يدفعه »[1] . والعباس يتحدث فى الأبيات التالية عن كتمان الهوى وأسباب هذا الكتمان الذى لم يكن عن ملال أو جفوة وإنما كان تجنباً لأقوال الكاشحين والرقباء :

كتمت ، ومن أهوى ، هوانا ، فلم نَبُح ... وقد كانت الأسرار باللَّمح تظهرُ
فنحن كلانا مُقْصِد فى فؤاده ... من الشوق نار حرها يتسعر
فلا أنا أبدى ما أُجِنُّ ولا الذى ... به مثل ما بى للمخافة يَذْكر
فيا عجباً منى ومنها وصبرنا ... على ما نلاقى كيف نصبو ونصبر
وما صَبْرُنا ألاَّ نبوحَ فنشتكى ... سرائر ما يُخفى الضمير ويُضمر
ملالاً ، ولكنْ نتقى قول كاشحٍ ... يُبلِّغُ عنا ما نقول ويُظْهر
فنكتم ما يخفى الضمير تحفظاً ... وخير الهوى ما كان يُخْفى ويُسْتر
على أنه يبدو مرارًا من الفتى ... طوالعُ إن هاج الفؤاد التذكر
إذا غلب الصبرَ البكاءُ وهُيِّجَتْ ... تباريحه فالصبُّ بالذكر يُعْذر[2]

ومن مظاهر الكتمان عند العباس التظاهر بالسلو ولا سلو خوفاً على المحبوب وإشفاقاً عليه :

كذبت على نفسى فحدّثت أننى ... سلوتُ لكيما ينكروا حين أصدُق
وما عن قلًى منى ولا عن ملالة ... ولكننى أبقى عليك وأشفق

---

(١) الزهرة ٣١٧ .
(٢) ديوان العباس ١٣٨ .

عطفتُ على أسراركم فكسوتها قميصاً من الكتمان لا يتمزق[١]

وتفنن الشاعر فى كتمانه . فإذا ما سئل عمن يحب أجاب بغير ما عنده . قال[٢] :

فإذا قيل : من تحب ؟ تخطّاك لسانى ، وأنت فى القلب ذاك

ثم إنه إذا ما بكى يتجه إلى الشرق إذا كانت منازلها فى الغرب ، ثم يصفها ويذكر أن فى خدها خالاً وليس من خال وما هذا إلا لخوفه من الوشاة . يقول[٣] :

أبكى إلى الشرق إن كانت منازلهم مما يلى الغرب خوف القيل والقال

أقول بالخد خال حين أنعتها خوف الوشاة وما با لخد من خال

ولكنه على الرغم من كل هذا الكتمان والتحفظ لم يستطع أن يسير فيه إلى آخر الشوط لغلبة الوجد عليه ولاختمار الحب فى نفسه اختماراً لم يملك معه الكتمان الطويل لما كان يبدو عليه من علائم وأمارات تنم عليه . لذلك نجده يقول[٤] :

من كان يزعم أن سيكتم حبه حتى يشكك فيه فهو كذوب

الحب أملك للفؤاد بقهره من أن يرى للسر فيه نصيب

وإذا بدا سر اللبيب فإنه لم يبْدُ إلا والفتى مغلوب

إنى لأُبْغِض عاشقاً متحفظاً لم تتهمه أعين وقلوب

ولكنه على الرغم من اكتشفه عن مكنون حبه فإن السر الذى لم يقو على كشفه هو اسم المحبوبة ، قال[٥] :

جحدت الهوى حتى إذا كشف الهوى غطاء جحودى واستنارت حقائقه

سكت ولم أملك شهادات حبكمْ ونَمّتْ على وجهى وجسمى نواطقه

وأصبحت منسوباً إلى العشق كلما ذُكِرْتُ ، ولا يدرون من أنا عاشقه !

---

(١) ديوان العباس ١٩٥ .
(٢) المصدر نفسه ٢٠٦ .
(٣) المصدر نفسه ٢٢٣ .
(٤) المصدر نفسه ٦٠ .
(٥) المصدر نفسه ٢٠١ .

ومن مظاهر الكتمان الأخرى عنده التظاهر بالصدود والهجران للأسباب نفسها ؛ قال[١] :

الله يعلم ما أردت بهجركم ... إلا مصانعة العدو الكاشح
وعلمت أن تباعدى وتسترى ... أوفى لوصلك من دُنوٍّ فاضح

ثم أكد هذه الناحية لمحبوبته مراراً ؛ ويبدو أنها كانت ترى أن هجره لها كان عن عمد وقصد ، قال[٢] :

فيامن لا يَحِنُّ إلى وصالى ... وإن طال اجتنابى واعتزالى
بدا لى أن أعود إلى التصابى ... فليتك قد بدا لك ما بدا لى
فأُقسم ما أردت الهجر إلاَّ ... لأصرف عنك مكروه المقال
أمر على منازل أنت فيها ... فأصرف عنك طرفًا غير قَالِ
وإن حُدِّثْتُ عنك رأى جليسى ... كأنى مُعرض لهواك سال
إذا خِفْنا بُغاة الناس كنا ... على حال الصريمة والتقالى
وإن غَفَلَتْ عيونهم رجعنا ... لأحسن ما يكون من الوصال

وقال[٣] :

وأهجر عمدًا كى يقال : لقد سلا ... ولست بسالٍ عن هواك إلى الحشر
ولكن إذا كان المحب على الذى ... يحب شفيقًا غافَلَ الناس بالهجر

وهَجْر العباس فى حقيقته لم يكن إلا هجراً مصطنعاً لايدخل فى المفهوم الحقيقى للهجر وإنما يدخل فيما سمّاه ابن حزم بالهجر الذى يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وهو أحلى عنده من كل وصل ، يقول عنه : « فحينئذ ترى الحبيب متحرفاً

---

(١) المصدر نفسه ٧٤ .
(٢) ديوان العباس ٢١٦ .
(٣) المصدر نفسه ١٣٣ .

عن محبه ، مقبلاً بالحديث على غيره ، معرضاً بمعرض لئلا تلحق ظنته أو تسبق استرابته . وترى المحب أيضاً كذلك ولكن طبعه له جاذب ، ونفسه له صارفة بالرغم ، فتراه حينئذ منحرفاً كمقبل ، وساكتاً كناطق ، وناظراً إلى جهة نَفْسُهُ فى غيرها[1] » .

ومن آداب الحب عند العباس صبره على ما كان يلقاه من هجر المحبوب وصده الذى يبدو أنه كان قاسياً مؤلماً ولم يكن من نوع هجر العباس ، حتى إن الشاعر اتهم محبوبته بقلة الوفاء بسببه إذ قال[2] :

وما هجروك من ذنب إليهم ولكن قَلَّ فى الناس الوفاءُ
وغَيّر عهدهم مَرُّ الليالى وحان لمدة الوصل انقضاءُ

ولكنه لم يكن ليقوى على صدّ الحبيب وهجره ولم يستطع أن يقف منها كموقفها هى منه ، قال[3] :

هجرت وما أقوى على الهجر ساعة ألا ليت قلبى مثل قلبك صابر

وقال[4] :

سلبتنى من السرور ثيابا وكستنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقتْ من الوصل بابًا فتحتْ لى من المنية بابا
عذبينى بكل شىء سوى الصدم (م) فما ذقت كالصدود عذابا

يظهر أن الصدود والهجر الذى ابتلى به العباس من صاحبته كان بعد التغير الذى طرأ على موقفها ، وكانت حصيلته كثرة ما نجده من شكوى وألم وبكاء فى شعر العباس وحتى فى رسائله إليها ، ثم فى الأشعار التى كان يؤكد لها فيها حبه وإخلاصه وصدقه وهى التى أدار عليها معظم شعره ، يقول[5] :

---

(١) طوق الحمامة ٦٧ .
(٢) ديوان العباس ٤ .
(٣) المصدر نفسه ١٤٤ .
(٤) المصدر نفسه ٧٤ .
(٥) المصدر نفسه ٢ .

إلى الله أشكو إنه موضع الشكوى فقد صَدَّ عنى بالمودة من أهوى
لعمرى لأَهْلُ العشق فيما يصيبهم أَحَقُّ بأن يُبكى عليهم من الموتى

ويقول[١] :

وقد حُمِّلت من حُبِّيكِ مالو تقسّم بين أهل الأرض شابوا

ويقول[٢] : :

أقول لما ملانى جفوة وهوى يا من كَلِفْت به للشؤْم والنَّكدِ
أشكو هواك ولا أبغى سواك وإن جرّعْتنى غصص الأَحزان والكمد

وفى الصف المقابل نجد العباس كما يتراءى من شعره ذلك المحب الصادق الذى يرى حب فوز جسده وأضناه ، وهو ما انفكّ يؤكد إخلاصه وصدقه فى أكثر شعره ، يقول[٣] :

ما زال حبك فى فؤادى ساكنًا وله - بِزَيْد تنفسِى - ترديد
فيلين طورًا للرجاء وتارةً يشتد بين جوانحى ويزيد
حتى برى جسمى هواك فما تُرى إلا عظام يُبَّسُ وجلود
لا الحب يصرفه فؤادى ساعة عنه ولا هو ما بقيت يبيد
أمسى فؤادى عندكم ومحله عندى فأين فؤادى المفقود ؟
والله لا أبغى سواك حبيبةً ما اخضَرّ فى الشجر المورق عود

ويقول بعد أن حرمه الهجر النوم فراح يسأل عنه وعن طعمه كيف يكون[٤]:

قِفا خبّرانى أيها الرجلان عن النوم ، إن الهجر عنه نهانى

---

(١) المصدر نفسه ٢٢ .
(٢) المصدر نفسه ٩٥ .
(٣) المصدر نفسه ١٠٥ .
(٤) المصدر نفسه ٨٣ ثم انظر ٨٢ أيضاً .

وكيف يكون النوم ، أم كيف طعمه ؟ صِفـــا النوم لى إن كنتما تصفان
وإنى لمشتاق إلى النـــوم فاعلما ألا ولا عهـــدٌ لى بالنـــوم منذ زمان

وكشف العباس عن أن الهوى أثقله وأضناه حتى خُيِّل إليه أن الناس كانوا يطلبون إليه أن يبتعد عنها ويواصل سواها لعلها تغار أو ترجع إلى وصله ، وإلا فإنها طريق لسلوها ونسيانها ، ولكنه أبى ذلك وأكد حبه وإخلاصه لها فقال[1] :

يقولون لى : واصل سواها لعلها تغـــار ، وإلا كان فى ذاك مايسلى
ووالله ما فى القلب مثقال ذرة لأخرى سواها ، إن قلبى لى شغل
عجبت لأبدان المحبـــين قُوِّيتْ بحمل الهوى ، إن الهوى أثقل الثِّقْل
حملت الهوى حتى إذا قمت بالهوى خررتُ على وجهى وأثقلنى خِمْلى

موقف فوز :

شِعْرُ العباس المصدر الوحيد فى استنتاج موقف فوز من صاحبها ، ولو قدر لنا أن نرتبه ترتيباً تاريخياً لحل كثيراً من المشاكل التى أثارها ويثيرها هذا الحب . يبدو أن العلاقة بينهما كانت فى أول أمرها طيبة لا غبار عليها ، وأن فوزاً كانت تحب العباس وتبادله غراماً بغرام حتى ليقول إنها هى التى استنهضته وأيقظته للهوى . والأبيات التالية خير ما يمثل بداية العلاقة وطبيعتها بين الحبيبين ، قال[2] :

أبكى الذين أذاقـــونى مودتهم حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا
واستنهضونى فلمـــا قمت منتصباً بثقل ما حملوا من ودهم قعدوا
جاروا على ولم يوفوا بعهدهم قد كنت أحسبهم يوفون أن عهدوا

كما تكشف الأبيات التالية جانباً من الود والصفاء الذى كانا عليه ولكنه لم يدم إلى النهاية بسببها هى ، قال العباس[3] :

---

(١) المصدر نفسه ٢١٢ .
(٢) المصدر نفسه ٨٤ .
(٣) المصدر نفسه ٧٧ .

وكنا عاشقين ذوى صفاءٍ ... وَوِرْيٍ فى الجوانح ذى اتِّقاد
وكنا لانبيت الدهرَ حتى ... نكون من اللقاء على اتعـاد
فغيَّرها الزمـان وكل شىء ... يصير إلى التغير والنفـاد

ثم راح لما شعر بتغيرها وبموقفها السلبى يوازن بين حاليهما وموقف كل منهما موازنة تدل بلا ريب على أن الحب آل إلى علاقة من جانب واحد ، فبينما كانت تنام ليلها الطويل كان العباس يعانى السهاد والسهر[1] :

جعلتِ محلَّة البلوى فؤادى ... وسلَّطتِ السُّهاد على رُقادى
ونِمْتِ خليَّـة وفقدتُ نومى ... أما استحيا رُقادك من سهادى؟!

وقال[2] :

هجرتم وما نقدر على ما قدرتم ... عليه وأنتم ترقدون ونسهـر
أدوم بعهدى ما حييت وقلّ ... من يدوم على عهد ولا يتغير

ثم يكشف العباس عن أمر هام فيقول : إنه كان يعلم أن وصلها لن يدوم وأنها ستتغير وتنقض عهدها ولكنه لم يكشف عن أسباب هذا التنبؤ وموجباته إلا ما يبدو من اتهامه إياها بالظلم ، قال[3] :

قد كنت أعلم يا ظلو ... م بأن وصلك لا يدوم
قد كنت أغْبَطُ فيكمُ ... حينًـا وأمـرُكِ مستقيم
حتى نقضت عهودنا ... والعهـد ينقضـه الظلوم

ولكن ما دلائل التغير فى موقف فوز ؟ شعر العباس يجيب عن هذا السؤال ويلخصه بالإضافة إلى ما تقدم فى أمرين : أولهما ردها للهدايا التى كان

---

(١) المصدر نفسه ١٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ١٤٠ .
(٣) المصدر نفسه ٢٤٧ .

يبعث بها إليها كما يتبين من قوله[١] :

ردت علىّ هـديةً لو أنها بعثت إلى بمثلهـا لم أردد
وتقول : إنى قد تركت غوايتى فاذهب لشأنك راشدًا لم تُطْرد

وثانيهما أنها أصبحت لا تأبه لرسائله فلا تجيب عنها من جهة ، ثم إنها انصرفت عن الكتابة إليه بعد أن كانا يتبادلان الرسائل من جهة ثانية ، وأشار إلى هذا فى أكثر من مرة ، قال[٢] :

أيا من لا يجيب لدى السؤال ويا مَنْ لا يثيب على الوصال
ويا من قوله لى حين أشكو إليه : مُتْ بدائك لا أُبالى

وقال :

نبذتْ مكاتبتى ورَجْع رسالتى وتنورت مصباحها فى المسجد

ونحن لا نتصور تغيراً فى موقف وانفصام عرى علاقة بين محبين بلا مبررات وأسباب ، وإذا ما رحنا نتلمس الأسباب فلا نعدم أن نعثر على شىء منها فى شعر العباس ، ويلوح لنا — كما يبدو فى شعره — أن حبها له كان نزوة عابرة لم تكن لتتمكن فى نفسها حتى إن العباس نفسه شك فى هذا الحب وتساءل عنه فقال[٣] :

أصادق حبك أم كاذب يا خُلّتى ؟ حبـك مصنوع
عاهدتنى أن تحفظى لى الهوى فقد بدا لى منك تضييع

وقال [٤] :

مـا زلت أسخـر ممـن يحب من لا يحبـه
حـتى ابتليتُ بمـن لا يحبـنى وأحبـه

---

(١) المصدر نفسه ٨٨ .
(٢) المصدر نفسه ٢٢٥ .
(٣) المصدر نفسه ١٧٢ .
(٤) المصدر نفسه ٥٣ .

يهوى بعادى وهجرى ومنيتى الدهر قربه
فليت قلبى له كا ن مثل مالى قلبه

وقال[١] :

لا كان قلبى حين يَعْبا بمن له لسانان ووجهان
يَكْذِبُنى الحب وحبى له أول حب ماله ثان

ولكن ما الذى حملها على هذا ؟ وما سبب هذا الحب الكاذب من جانبها أو حتى التغير فيه وموقفها منه ؟ هل كانت تحب شخصاً آخر غير العباس ؟ إن شعره يجيب بنعم ، فيقول[٢] :

إن جَهْد البلاء حبُّك إنسا نًا هواه بآخر مشغول

ويقول[٣] :

يا فوز لم أهجركم لملالة منى ولا لمقال واشٍ حاسدِ
لكننى جربتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعام واحد !

ويقول[٤] :

حبيب أتانى أنه خان عهده فبتُّ بليل ما تزول كواكبه

فما دام العباس كان يعلم هذا عن فوز فى أنها خانته وأنها مشغولة بغيره وأنها لا تصبر على طعام واحد فلماذا كان يبقى على حبها فيقول[٥] :

ولست وإن بدأتِ بقطع حبلى على حالٍ لوصلكم بسال

---

(١) المصدر نفسه ٢٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ٢٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ١٠٦ .
(٤) المصدر نفسه ٥٢ .
(٥) المصدر نفسه ٢٢٥ .

ويقول[١] :

فأنت – وإن أضعت الود – عندى بمنـزلة اليمين مـن الشمـال

ثم لماذا وقع فى حيرة من أمره بعد أن أتاه – كما يقول – أنها خانت عهده ؟ ولماذا حاول الإغضاء على هذا الذنب الخطير فى شريعة الحب وقوانينه ؟ قال[٢] :

فوالله ما أدرى أأغضض لذنبه كأنى لم أعلم به أم أعاتبـه
إذا ما جنى ذنباً ظللت كأننى به صاحب الذنب الذى هو صاحبه

صحيح أن التذلل للمحبوب أمر مستساغ فى الحب ، والإغضاء عن ذنوبه وهفواته والسكوت عليها جائز أيضاً ، ولكن فى حدود . ففى كتاب الزهرة أن التذلل للمحبوب من شيم الأديب ، والحازم من التمس العز فى استشعار التذلل يتمكن من وداد محبوبه ، ويظفر من هواه بمطلوبه[٣] . وفى (روضة المحبين) أن المحبة شجرة فى القلب ، عروقها الذل للمحبوب[٤] ، وأن الحب مبنى على الذل الذى لا يأنفه حتى الأعزة ولا يعدوه نقصاً أو عيباً بل يعدوه عزاً[٥] . أما إذا وصل الحب إلى حد الخيانة والغدر فالذل والإغضاء فى هذه الحال ضعف وجبن وسفاهة لا يصدر عن ذى رجولة وكرامة وقوة أيّاً كان المحبوب ومهما كانت طبيعة العلاقة السابقة .

وتبدو فى الأفق أسباب أخرى منها أن فوزاً كانت – كما يبدو من شعر العباس – تشك فى حبه وتتهمه بالنظر إلى غيرها وعدم الاقتصار عليها وحدها ، غير أنه كان ينفى مزاعمها فى كل مرة ، ويؤكد أقواله بمؤكدات قوية ، ولا أظنه كان غير ذلك ، لأنه لو كان ينظر إلى غيرها أو يخونها لما وجدناه ضعيفاً سفيهاً يتعلق بأسبابها حتى بعد علمه بخيانتها له – إن صحت – وانشغالها بغيره كما حدث هو

---

(١) المصدر نفسه ٢٢٥ .
(٢) المصدر نفسه ٥٢
(٣) الزهرة ٥٣ .
(٤) روضة المحبين ٤٣٦ .
(٥) المصدر السابق ٣٠١ – ٣٠٢ .

نفسه فى شعره ، ومما يدل على شكها فى حبه قوله[١] :

مرّت بنا تشرق الدنيا ببهجتهـا ... فى موكب يَقْسِم الأمراض والكمدا
قالت : نظرتَ إلى غيرى ،فقلت لها : ... يمين ذى قسم بالله مجتهدا
ما أضمر القلب شيئًا تغضبين له ... إلا رفعت إليك الطرف معتمدا
وإن هويت ـ فما عندى مخالفة ـ ... فقأتُ عينى حتى لا أرى أحدا
لقد شقيتُ لئن دمنا كذا أبدا ... إذا سَعَيْتِ لإصلاح الهوى فسدا
ما تطرفُ العين إلا وهى واكفةٌ ... لو كنت أبكى بماء البحر ما نَفِدا
ولا تنفَّست إلاّ ذاكراً لكم ... لا شىء يَشْغَلُنى عن ذكركُمْ أبدا

وقوله[٢] :

زعم الرسول بأنكم قلتم لـه : ... إنّا سواكم بالوصال نحاول
لا والذى سمك السماء بقدرةٍ ... ما فى العباد لكم لدىّ معادل

ليس فى شعر العباس إشارات إلى هذا الموضوع . وكل الذى فيه إشارات إلى أنه كان باستطاعته أن يواصل غيرها لو شاء ، فقد ذكر أن فتيات كن يردن وصله والتعلق بأسبابه ولكن حبه فوزاً كان يمنعه ويقف حائلا دون تحقيق رغباتهن ، قال[٣] :

ولو أنى أشاء لواصلتنى ... ذوات حجىً إلى وصلى صوادِ
عقائل من بنات أبيك صُورٌ ... إلىَّ ذوات عطف وانقياد
فجئتكم على ظمإٍ لأرْوى ... فلم يكُ عندكم بَلَلٌ لصاد

وقال[٤] :

وأرى الكواعب يغتنمن وسائلى ... لولاك كان لبعضهن تودد

---

(١) ديوان العباس ٧٩ – ٨٠ .
(٢) المصدر نفسه ٨٠ .
(٣) المصدر نفسه ٧٨ .
(٤) المصدر نفسه ٩٠ – ٩١ .

فى الناس مثلك لو أردتُ وجـدتُه ولو يُبتغى مثلى لكم لم يوجد

أحسب أن العباس ما كان يلجأ إلى هذا إلا لحاجة فى نفسه ويسبب قسوة صاحبته وصدودها . فربما قصد إليه لإثارة مكامن الغيرة فى نفسها خاصة وأنه يقول إنها كانت تغار إذا ما سمعت بأخرى :

تغـار علىّ أن سـمعت بـأُخرى وأطلب أن تجود فلا تجـود[1]

وثمة سبب آخر يتصل بالسبب السابق وهو ما اتهم به العباس أنه كان يراود الرسل من جواريها اللائى يحملن إليه الرسائل ، ففى (الأغانى) أن جارية لفوز يقال لها (يُمْن) كانت تجىء إلى العباس برسائلها، فمضت إلى فوز — وقد طلبت من العباس شيئاً فمنعها إياه — وزعمت أنه راودها ودعاها إلى نفسه، فغضبت فوز من ذلك فكتب إليها العباس ينفض عن نفسه غبار ما اتهم به مستشهداً بقصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ، ومبيّناً أنها مؤامرة حيكت من حواسد لها للتفريق بينهما ، قال[2] :

وقد زعمت (يمن) بأنى أردتهـا على نفسها تَبًّا لذلك من فِعْل
سلو عن قميصى مثل شاهد يوسف فإن قميصى لم يكن قُدَّ من قُبْل
ومجتهداتٍ فى الفساد حواسـدٍ لها وهى مما قد أردن على جهل
تآزرن فيما بينهن فجئنهـا على وجه إلقـاء النصيحة للمَحْل
يُعَرِّضنَ طوراً بالتغاضى وتـارة يعاتبنها بالجِدِّ منهن والهزل
وما زلن حتى نلن ما شئن بالرُّقى وحتى أصاخت للخديعة والخَتْل
وحتى بدت منها الملالة والقِلى وعهدى بفوز لا تَمَلّ ولا تَقْلى
فلما انقضى الوصل الذى كان بيننا شَمِتْنَ جميعًا واسترحن من العَذْل
وقد قال لى أهلى كما قال أهلها لها غير أنى لم أطع فى الهوى أهلى

---

(١) المصدر نفسه ٩٧ .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٧ ، ثم انظر الشعر فى ديوان العباس ٢١٣ .

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة التى اتهم فيها العباس ، فإننا نجده يشير فى أبيات أخرى إلى زعم رسول آخر اتهمته بمراودتها ، فراح يكذب زعمها ويقسم بأغلظ الأيمان بأنه محض افتراء . قال[1] :

لا لوم أن غضبت عليك فإنها سمعت لعمرك أعظم البهتان
زعم الرسول بأننى راودته كذب الرسول ومنزل الفرقان
ما كنت أجمع خَصْلتين : خيانةً لكُمُ ، وبَيع كرامةٍ : بهوان

يبدو أنه كان للسعاية دورها فى التفريق بين العباس وصاحبته ، ففى البيتين التاليين يشير إلى شيخ حال بينهما ، وقد يكون هذا الشيخ مولاها ، قال[2] :

تلك فوز فقبّح الله شيخًا ـ حال بينى وبينها ـ بالمخازى
فبلائى مذ فارقتنى طويل وبنات الفؤاد ذات اهتزاز

ثم يشير إلى سعاية من امرأة كانت له معها قصة تتلخص فى أنه وعدها أن يجيئها فأخلف وعده وذهب إلى فوز مما أثار حفيظتها وغضبها فصممت على الانتقام لنفسها بالإفساد بينهما ، قال[3] :

إن التى حدَّثتْكِ قد كذبتْ وأدركتْ عندكَ الذى طلبتْ
استفهمى قصتى وقصتها أُخْبرك عنها بقُبْح ما صنعت
أقبلتُ أسعى إليك مكتتمًا فأعرضتْ دونكم وقد علمت
فقلت كالمشتهى لما ذكرت : انطلقى اتّبعْك ، فانطلقت
أخلفتها وعدها وجئتكُمُ فعندها يا حبيبتى غضبت
فأقسمتْ لا تزالُ جاهدةً تُفسد ما بيننا وقد فعلت

وبعد هذا الاستقراء لأسباب القطيعة من شعر العباس أستطيع أن أقول فى ثقة : إن صاحبة العباس ما كانت إلا جارية منعمة مترفة لأحد الموسرين الأغنياء

---

(١) ديوان العباس ٢٦٦ — ٢٦٧ .
(٢) المصدر السابق ١٥٦ .
(٣) المصدر نفسه ٦٨ — ٦٩ .

من مثل منصور أو غيره ، وأظن أن أبيات العباس التالية لم تقل إلا بعد القطيعة لأن فيها نعياً واضحاً وأسفاً بيناً وندماً لا شك فيه على عشقه لها لأنها جارية وأنىّ كان للجوارى وفاء وحفاظ ؟ — كما يقول — :

ليس عشق الإماء من شغل مثلى ... إنما يعشق الإماء العبيد
لا وفاء ولا حفاظ ولكن ... كُذِّب الود ما لهن عهود
صلْ إذا ما وصلت حُرَّةَ قومٍ ... شرَّفتها آباؤها والجدود

ما الذى فعله العباس بعد القطيعة ؟ وجدنا فيما تقدم أنه على الرغم من هجرها له وتغير موقفها ظل يحبها ، ونجده الآن حيران قلقاً ، فى صراع بين عقله وقلبه وكأنه أحس بالندم وبما جر عليه حبها من مشاكل كثيرة كشف عن أكثرها فى شعره . ومنها ما يتحدث عنه فى الأبيات التالية أنها أفسدته على أهله وجعلته فى شغل عن الناس ، يقول[1] :

ألا إن فوزًا أفسدتنى على أهلى ... وقد كنت من فوز عن الناس فى شغل
ومالى عدو غير قلبى فإنه ... هو المورطى فى كل خَبْل من الخَبْل

وليس ببعيد أنه حاول نسيانها والانصراف عن التفكير فيها ، لكن قلبه كان أقوى من أن يحقق له ما أراد ، قال[2] :

أصرف فؤادك يا عباس مُنْصرفاً ... عنها ، يكن عنك كَرْب الحب منصرفا
لو كان ينساهُمُ قلبى نسيتُهُم ... لكن قلبى لهم والله قد ألفا

وقال[3] :

ولو كان قلبى طائعًا لى قَلاكُمُ ... ولكن عصانى فهو أشقى بكم جدا
وقد كنت أهوى صرمكُمْ لو أطقتُهُ ... ولكنَّ قلبى لم يجد منكُمُ بُدّا

---

(١) ديوان العباس ٢٠٩ .
(٢) المصدر نفسه ١٨٢ .
(٣) المصدر نفسه ٩١ .

وهكذا آل الأمر بينهما إلى جفوة وقطيعة لم يبق من أمرها سوى هذا الشعر الباكى الحزين ، الطافح بالألم والشكوى وهى أكثر المواضيع التى أدار عليها العباس غزله .

بقيت مسألة لا بد من الإشارة إليها ، هى أنه لم يكتب للعباس كأكثر العذريين أن يتزوج من صاحبته ، ولكن الذى يظهر من شعره أن كلا من العباس وفوز قد تزوج بغير صاحبه ، وليس يدرى أيهما كان البادئ بالزواج — وإن كانا مكرهين عليه — كما يقول العباس[1] :

وقد حسبت ذنبًا علىَّ تـــزوجى ... فقلت : كلانا مذنب قد تزوجا
كلانا على ما كان من ذاك مُكْرَهٌ ... يحاول أمرًا لم يجد منه مخرجا
كلانا مشوقٌ أنضج الشوق قلبه ... يعالج جَمْرًا فى الحشـــا متأججا

أمّا من الذى تزوج فوزاً فإن المصادر لا تشير بشىء ولا شعر العباس ينبئ عنه ، وهذا مخالف لما نعرفه عن أكثر العذريين الذين حرموا من محبوباتهم ولكن عرف أزواجهن .

رواسب قديمة فى غزل العباس :

يبدو أن العباس اطلع على أخبار المتيمين الجاهليين والعذريين الأمويين وعرف قصصهم وقرأ شعرهم أو بعضه — على أقل تقدير — دليل هذا ما يرد فى شعره من أسماء بعضهم من مثل قوله[2] :

ما إن صبا مثلى جميل فاعلمى ... حقًّا ، ولا المقتول عروة إذْ صبا
لا ، ولا قبلى المُرقِّش إذْ هَوِىَ ... أسمـــاء للحَيْن المحتَّم والقضا

ثم ما يظهر فيه من ملامح نجدها فى غزلهم ، ولكنه على أية حال لم يكن تابعاً كل التبع — كما يقول عنه بلاشير — لشعراء الحجاز وبخاصة جميل بثينة والأحوص

---

(١) المصدر نفسه ٧١ .
(٢) المصدر نفسه ١ — ٢ .

والعرجى[١] . لأن الرواسب القديمة فى شعره فيها أثر من الجاهليين والإسلاميين على حد سواء ، ومن غزل العذريين وغير العذريين مثل ما نجده من أوصاف حسية عرفها الغزل العربى بكثرة عند العذريين . لكن الذى لا بد من ملاحظته أن الرواسب القديمة فى شعر العباس قليلة،وحسبه أن شعره خلا من الأطلال والمقدمات خلوًا تامًّا ، أما عن العناصر الأخرى فهى بالإضافة إلى الأشياء العامة التى لا بد من وجودها عند العذريين وأهل العفاف أينما كانوا وفى أى عصر وجدوا من مثل الشكوى والألم والبكاء والصد والهجران وغيرها فإنها تتمثل عند العباس فى النواحى التالية :

١ — الأوصاف الحسية :

وهى قليلة عنده ، ومنها تشبيه المحبوبة بالقمر والشمس والغزال من مثل قوله[٢] :

ألا أيها القمر الأزهر تبصّرْ بعينك هل تُبْصر ؟
تبصر شبيهك فى حُسْنه لعلك تبلُغُ أو تخبر

وقوله[٣] .

يا من رأى مثلى فتًى يسعى طليقًا وهو مُوثَق
من حب ذى خودٍ طَفْلة كالشمس حُسْنًا حين تشرق

وقوله[٤] :

فكأنها شَمْسٌ تَجلَّـ (م) ت فى البلاد لـه براهـا
خودٌ كأنَّ بريقها مِسْكًا يفوحُ لدى كراهـا

---

(١) مادة العباس بن الأحنف . The Encyclopaedia of Islam (New edition)
(٢) ديوان العباس ١٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ١٩٠ .
(٤) المصدر نفسه ٢٨٧ .

ثم إنها فى مرة أخرى غزال غرير ، فاتر الطرف ساحره :

أتيح لقلبى من شقاوة جَدِّه غزال غرير فاتر الطرف ساحره[١].

وغير هذه التشبيهات أوصاف أخرى طالما رددها الشعراء قبل العباس ، فالمحبوب صحيح ولكنه مريض المقلتين إذا ما نظر : ثم إنها ثقيلة الأرداف ، دقيقة القد ، جميلة الصورة :

ومن هو محبوب كلفت بحبه صحيح مريض المقلتين إذا نظر
ومثقلة الأرداف مهضومة الحشا لصورتها فى الحُسْنِ فَضْلٌ على الصور[٢]

٢ ــ البدوات واللمحات الحسية :

بينا فى تمهيد البحث أن الغزل العفيف الجاهلى ، والعذرى الأموى لم يكن يخلو من هذه البدوات التى تتعلق بالجسد واتفقنا مع من عرض لهذه الناحية عند الجاهليين والأمويين على أن الغزل العفيف لا يفطم الحاجات الجسمية ولكنها ليست هدفه الأول كما عند شعراء الحس والفحش والمجون. فى شعر العباس بعض هذه البدوات التى وقفنا على مثلها عند المرقّش وعروة وجميل وغيرهم ، وهى لا تعدو أن تكون عنده ــ فى رأيى ــ أمنية المتمنى أو شطحة من شطحات الخيال والتأمل التى قد توجد عند المحبين ، والأدلة على هذا فى شعر العباس كثيرة . ففى الأبيات التالية جرّه وصف محبوبته إلى الحديث عن طعم ثناياها ولكن بلا خبرة منه ، يقول[٣] :

والله لو لا نظرى ــ كلما غابت ــ إلى الشمس أو البدر
أعلل النفس بأشباهها لمّا استقر القلب فى الصدر
كأن كأسا سلسبيلية مملوءة بالمسك والخمر

---

(١) المصدر نفسه ١٥٠ .
(٢) المصدر نفسه ١٤٩ .
(٣) المصدر نفسه ١٢١ .

طَعم ثناياها بُعَيْد الكرى أخبُرُه منهـا بلا خُبْر
تلك التى لو ذقتُ من ريقها ما ذقتُ سقمًا آخر الدهـر

يؤكد ما أذهب إليه ما نلاحظه فى الأبيات التالية التى يطلب فيها من جارية لفوز — أخبرته بزجرها له — أن تأتيه بقبضة من تراب فوز ، فهى عنده تغنى عن كثير مما يتمناه منها كما أنه يتمنى أشياء أخرى ، ولعله كان يجد فى هذا متنفساً له عما يضطرم فى نفسه ، قال[1] :

يـا سَعْدُ هاتى لى بعيشك قبضة من بيتها لأشمَّ ريحَ تُرابهـا
فأكون قد أُسقيتُ منها ريقها وأُنِلْتُ حُسْنَ بنانها وخضابها
يا ليتنى مسواكها فى كفها أبدًا أشم الغُرَّ من أنيابهـا
أو ليتنى مِرْط عليها باطـن ألتذ نِعمةَ جلدها وثيابهـا
فأكون لا أنحلّ عنهـا ساعة دون الثياب مجاورًا لحقابها[2]

وفى هذا المجال كان العباس يتحدث فى بعض الأحيان عن أشياء تخص المحبين والحب عامة بحيث لا يمكن أن تحسب عليه بأية حال ، أو تؤخذ مأخذاً على عفته ينفذ منها إلى التشكيك فيها ، فهل ما يمنع أن يقول[3] :

والحب لا تكمل لذاته لأهله إلاَّ بكشف القناع

أو يقول[4] :

لم يخلق الرحمن أحسن منظرًا من عاشقين على فراش واحـد

وهنا لا بد من السؤال التالى : هل كان العباس وصاحبته يلتقيان ؟ وما طبيعة هذا اللقاء ؟ شكا فى شعره قلة اللقاء ولكن فيه ما يدل على أنهما كانا يلتقيان

---

(١) ديوان العباس ٥٤ .
(٢) الحقاب : شىء تعلق به المرأة الحلى وتشده فى وسطها .
(٣) ديوان العباس ١٧١ .
(٤) المصدر نفسه ١٠٦ .

ولكننا على الرغم من هذا لا نستطيع أن نجزم أن تلك اللقاءات كانت حقيقة أم من صنع خياله ، ومهما كان أمرها فإنها كانت خاطفة — فى الغالب — لا يدور فيها أكثر من الكلام والأقوال واستماع كل منهما إلى الآخر ، يقول[١] :

كأنى لم أكن شجنًا لفوز ... ولم يكثر علىّ لهـا عويل
ولم يَسْعَ الرسول إلىّ منهـا ... بأحسن ما يجىء به الرسول
ولم نجلس جميعًا فى خـلاء ... نُسَرُّ بما أقول وما تقول

يبدو أن قلة اللقاء لم تكن إلا بسبب الوشاة والسعاة ، وحتى إذا التقيا فإنهما لم يكونا يستمتعان باللقاء ، يقول[٢] :

حتى متى نحن على رِقْبَةٍ ... لا نلتقى خشية واشٍ وسـاع
فإن تلاقينا ففى خفية ... لا نشتفى من نظر واستماع

فليس غريباً إذن أن يقول العباس[٣] :

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها ... قد استعذبا طعم الهوى وتمتعا
وإنى وإياها على غير رقبـة ... وتفريق شمل ، لم نَبِتْ ليلةً معا
وقد عصفت ريح الوشاة بوصلنا ... وجَرَّت عليه ذيلهـا فتَقطَّعا

٣ — التمنيات :

ونعنى بها ما كان يتمناه العباس فى شعره من أمنيات كان يرجو أن تتحقق له ولصاحبته جرياً على ما كان من سابقيه من مثل عروة وجميل وكثير ، قال عروة :

فيا ليت كل اثنين بينهما هوًى ... من الناس والأنعام يلتقيـان
فيقضى حبيب من حبيب لُبَانة ... ويرعاهما ربى فـلا يُـريان

(١) المصدر نفسه ٢١٠ .
(٢) المصدر السابق ٢١٠ .
(٣) المصدر نفسه ١٥١ .

فيا ليت مَحيانا جميعًا وليتنا إذا نحن متنا ضمّنا كفنان
ويا ليت أنَّا الدهر فى غير رَيْبةٍ خليّان نرعى القفر مؤتلفـــان

وقال جميل :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلةً بوادى القرى إنى إذًا لسعيدُ
وهل ألقين فردًا بُثينَةَ مرةً تجود لنا من وُدِّها ونجود

إلا أن من أغرب الأمنيات ما تمناه كثيرعزة فى أن يكونا بعيرين أجربين لرجل غنى يسرحان فى الخلاء لا يسأل عنهما أحد، بل يطاردهما الرعاة ويتحاشاهما الناس[١] . وهى أمنية غريبة حقًّا والشاعر فيهامتأثر بالفرزدق فى أبيات له[٢]. ويروى أن عزة نفسها عابتها وقالت : « لقد أودت بنا الشقاء الطويل ، أما وجدت أمنية أوطأ من هذه»[٣] . أما ابن رشيق فقد عد مثل هذه الأمنيات عيوباً من عيوب الغزل وقال إنها مكروهة فيه لا تليق بالمحبوب[٤] .

وأما العباس فقد تمنى له ولصاحبته العمى المؤقت إلى أن يلتقيا فينجلى بصرهما من جديد :

ألا ليتنا نعمى إذا حِيل بيننا وتجلى لنا أبصارنا حين نلتقى[٥]

وادَّعى أنها كانت تشاركه هذه الأمنيات والدعوات ، وربما تفوقا عليها ؛ وفى رأيى أن منشأ هذه التمنيات فى الغالب اليأس من الوصول إلى المحبوب وفقد الأمل فى الحصول عليه قال ، العباس[٦] :

قالت وإنسانُ ماءِ العين فى لُجَج يكاد ينطق عن كرْب ووسواس

---

(١) شرح ديوان كثير ١ / ٩٩ — ١٠٠ .
(٢) العمدة ٢ / ١٢١ .
(٣) المصدر السابق نفسه ٢ / ١٢١ .
(٤) العمدة ٢ / ١٢٠ .
(٥) ديوان العباس ٢٠٢ .
(٦) المصدر نفسه ١٥٧ .

يطفو ويرسو غريقًا ما تكفكفه كف ، فيالك من طاف ومن راس

عباس ليتك سربالاً على جسدى أو ليتنى كنت سربالا لعباس

أو ليته كان راحًا وكنت لـــه من ماء مزنٍ ، فكنا الدهر فى كاس

أو ليتنا طائرا إلْفٍ بمهمهــةٍ نخلو جميعًا ولا نأوى إلى الناس

المظاهر الحضارية فى الغزل العفيف :

من أبرز مايمتاز به الغزل العفيف عند العباس وبعض زملائه أنه يمثل بعض الجوانب الحضارية التى شهدها مجتمع القرن الثانى وتحدثنا عنها فى فصل الحياة الاجتماعية ؛ وهذه المظاهر الحضارية سمات تميزه عن مثيله عند الجاهليين والأمويين . ولكن هذا لايعنى إغفال المظاهر الحضارية التى سجلها شعر عمر بن أبى ربيعة وهو مايعكس صورة من الحضارة والترف فى مدن الحجاز فى العهد الأموى[1] . ولكنها تبدو أكثر وضوحًا عنا شعراء القرن الثانى وذلك للتقدم الحضارى السريع الذى شهده ؛ وأهم هذه المظاهر مايلى :

١ — تبادل الهدايا :

فى شعر العباس مايكشف عن أنه كان هو وصاحبته يتبادلان الهدايا ولكنه لم يكن يكشف عن نوعها فى أكثر المرات ، وسبق أن قلنا إن ردها لهداياه كان مظهراً من مظاهر الجفوة والقطيعة بينهما واستشهدنا بقوله :

ردت علىَّ هـــديَّة لـــو أنها بعثت إلى بمثلهـــا لم أردد

وتقول : إنى قد تركت غوايتى فاذهب لشأنك راشدًا لم تُطْرد

ويذكر فى أبيات غيرها السبب الذى ردّ هو من أجله هديتها ثم طلب هدية وحددها بنفسه فقال[2] :

---

(١) راجع : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٤٠٣ — ٤٠٧ .

(٢) ديوان العباس ١٨٠ .

ولما وهبتم خاتمًا فرددته لمعرفتى أن الخواتيم تَقْطع
فأهدى سِواكًا مس فاك فإنه يُسكِّن نارًا فى جوى القلب تلذع

ويظهر أن فوزاً استجابت لطلبه فأرسلت إليه بمسواكها ولبانها فوق تفاحة على ريحان ، وهو موافق لما كان يطلبه ويأنس به ، قال [١] :

أرسلت باللبان قد مضغَتْهُ فوق تُفَّاحــة على ريحــان
وبمسواكهــا الذى اختاره الله لفيهــا من أطيب الأغصــان
فكأنى وجدت ريحًا من الفر دوس فاحت من ريح ذاك اللبان
وكأن المسواك مسواك فوز أخلصُ النبت فى رياض الجنان
أى شىء يكون أطيب من شى ءٍ سقته من ريقها فسقانى

ولعل طمعه فى أشياء تتعلق بهالم يكن إلاالأنه كان يعتقد أنها تؤنسه وتسليه بحيث لا يفارقه ذكرها ولا صورتها ، وهو يشبه إلى حد بعيد مايقدمه الأحبة إلى بعضهم فى هذه الأيام من هداياوأشياء أخرى للذكرى وغيرها من الاعتبارات المعنوية الأخرى . وقد كان العباس نفسه يطلب من صاحبته مثل هذا فيقول [٢] :

فوز ماذا عليك أن تؤنسينى بحقاب أو خاتم أو وشاح ؟

ونجد فى قصيدة أخرى أنهما تبادلافعلا بعض هذه الأشياء فأعطته هى حقاباً وخاتما كما أراد وأعطاها هو برداً ، قال [٣] :

فلى عندها بُرْدٌ تُسكِّن قلبها به ولها عندى حقاب وخاتم

٢ — وصف المحاسن :

لم يكتف العباس بوصف محاسن صاحبته وصفاً تقليديًّا أو تشبيهها بأشياء قديمة ،

---

(١) المصدر نفسه ٢٦٢ .
(٢) المصدر نفسه ٧٣ .
(٣) المصدر نفسه ٢٤١ .

وإنما نعتها وشبهها بأشياء جايدة استقاها من عصره ومما كان فى بيئته فأكثر فى أوصافها من ذكر الريحان والورد والنرجس، وها هو يشبه قوامها بقضيب من الريحان ريان أخضر فيقول [١] :

وقد مُلِّيَتْ لين الشباب كأنها قضيب من الريحان ريّان أخضر

ثم إنه كلما شم رائحة الريحان ذكر رائحتها ، يقول [٢] :

أصبحت أذكر بالريحان رائحة منها فللنفس بالريحان إيناس

ويقول [٣] :

كيف يبغى الريحانَ أهلُ ظلوم وظلوم الريحان للريحان

كما أنه لم يكن يحب أن يسميها بالنرجس لاتصافه بالغدر وإنما كان يحب أن تسمّى آسةً لوفاء الآس [٤] :

إن الذى سمّاكِ منيتى بالنرجس الغدّار ما أنصفا
لو أنه سمّاك بالآسة وفَيْتِ إنّ الآس أهلُ الوفا

ويظهر أنه كان مغرماً بالآس حتى إنه لم يقبل أن يشبه عهدها بالورد لسرعة ذبوله وإنما فضل تشبيهه بالآس لاستمراره أكثر من الورد. وربما كانت هذه الأشياء منه أمنية المتمنى ورجاء المتوسل بعد الذى عرفه من تصرفات صاحبته وموقفها ، قال [٥] :

ووالله ما شبّهت بالورد عهدها إذا ما انقضى ، فيما تقول الأعاجم
ولكننى شبّهته الآس دائمًا وليس يدوم الورد ، والآس دائم

غير أنه يعود ويناقض نفسه فيقول إنه يبغض الآس والخلاف لمكان اليأس والخلاف من صاحبته ، ويحب التفاح والورد لأنهما يشبهان ريقها ونكهة فيها وينبئان

---

(١) ديوان العباس ١٢٣ .
(٢) المصدر السابق ١٦١ .
(٣) المصدر نفسه ٢٦٣ .
(٤) المصدر نفسه ١٩٠ .
(٥) المصدر نفسه ٢٤١ .

بالطيب والحلاوة عنها ، يقول [١] :

أبغض الآس والخلاف جميعًا ... لمكان الخلاف والياس منها
وأحب التفاح والورد حتى ... لو وزنتيه بالجبال وَزَنْها
أشبها ريقها ونكهةَ فيها ... فهما ينبئان بالطيب عنها

وقد تلاعب العباس بالألفاظ فى البيت الأول فجاء الجناس بين (الآس والخلاف) فى الشطر الأول ، و (الخلاف والياس) فى الشطر الثانى جميلا مقبولا نفذ الشاعر من خلاله إلى إعطاء فكرة عن موقف صاحبته منه من جهة ، وعن يأسه فيها من جهة ثانية .

٣ – مظاهر أخرى متفرقة :

ومن المظاهر الحضارية الأخرى عنده أن صاحبته كما تقدم كانت فتاة منعمة تسكن القصور ، ويقوم على خدمتها الوصائف والخدم . أما عن ملابسها ووسائل زينتها فإن شعر العباس لا يكاد يعطى صورة عنها إلا ما ذكر من حقابها وخواتمها ووشاحها وما يذكره فى البيت التالى من أنها كانت تلبس المصقلات وهى تطل من شرفة قصرها ، قال [٢] :

إنَّ شمسًا أبصرتها فوق سطح ... غادرتنى من البواكى قتيلا
أشرقت فى المصقلات فيامن ... أبصر الشمس تلبس المصقولا

كما يظهر الأثر الحضارى فى الأمكنة التى كانا يجتمعان فيها – إن كانا يجتمعان حقيقة – إذ أن اجتماعاتهما كانت فى مجالس مزدانة بأنواع الزينة والورود ، وكان فيها

---

(١) المصدر نفسه ٢٨٣ ثم انظر ٧٣ أيضاً .
(٢) المصدر نفسه ٢٢٨ .

الغناء والطرب — كما يقول العباس — ، وهذه الإشارة تشكك فى صحة تلك الاجتماعات وحقيقتها ؛ لأن مجالس من هذا الطراز لا يمكن أن تكون إلا فى أماكن عامة كالمتنزهات والملاهى فى الوقت الحاضر ، وأنى للعباس وصاحبته ارتياد مثلها وعيون الوشاة والرقباء تلاحقهما من كل صوب؟ من يدرى ؟! فربما كانت مجالس خاصة من مجالس القوم فى تلك الفترة ، ومهما يكن فهذا وصف جو المجلس ، قال[1] :

وكأننـــا لم نجتمع فى مجلس فيـــه الغناء ونرجس وبهـــار

ويبدو الأثر الحضارى عند شعراء الغزل العفيف فى التعبير والاستعمالات الجديدة لأشياء عرفها القرن الثانى مثلما نجد عند العباس من أن حب صاحبته ترك فى قلبه صدعاً كصدع الزجاج لا يمكن إصلاحه أو تلافيه وهو تعبير حضارى لطيف ، يقول[2] :

ولهـــا فى الفؤاد صَدْع مقيم مثل صَدْع الزجاج أعيا الصّناعا

ومثل هذا التعبير الحضارى الجديد مانجده عند الشاعر عكاشة العمى الذى كان يثلج صدره — كما يقول — عندما يظفر بصاحبته كناية عن الاغتباط والارتياح ؛ وهو تعبير جديد — فيما أظن — لا يعثر على مثله عند السابقين من الشعراء ، قال[3] :

حتى إذا ظفرت يداى بكاعبٍ كالشمس تَقْصر دونها الأَبصار
وثلجت صدرًا بالفتاة وصارتا كالنفس نفسانا وقرَّ قـــرار

ومن الصور الجديدة التى سجلها العباس فى شعره أنه شبه صاحبته وهى تمشى الهوينى بين وصائفها بمن يمشى على البيض أو خضر القوارير ، ثم ما حدّث عنه من فزعها لما رأت صورة أسد منقوشة على خاتم فقال[4] :

---

(١) المصدر نفسه ١١٦ .
(٢) المصدر السابق ١٨٠ .
(٣) الأغانى ٣ / ٢٦٣ .
(٤) ديوان العباس ١١٣ .

كأنها حين تمشى فى وصائفها تخطو على البَيْض أو خُضْر القوارير
أنبئتُها صرخت لما رأت أسدًا فى خاتم صوّروه أى تصوير

٤ – المراسلة والرسائل :

ومن المظاهر الحضارية أيضاً تبادل الرسائل بين المحبين ؛ لكن هذه الظاهرة وإن كانت حضارية فإنها ليست بجديدة فى الغزل الذى عرفها فى شعر عمر ابن أبى ربيعة فى القرن الأول فعُدّت تجديداً ساعد عليه التقدم الثقافى فى عصره. فى شعره بالإضافة إلى كثرة الرسل إشارات إلى رسائل ومراسلات بينه وبين صاحباته وخاصة (الثريّا) التى قيل إنها كانت ترد عليه بالشعر[١] ، وقد شك أبو الفرج فى هذا[٢] . ولسنا فى صدد التثبت من هذا ولكن الذى يهمنا أن الرسائل والحديث عنها موجود فى شعر عمر ، وهى إما رسائل تتفاوت بين الطول والقصر ، وإما أحاديث وحكاية عن مضامين الرسائل وما حوته من حوادث وأخبار[٣] . إن الميل إلى هذا الاتجاه فى المراسلة عند عمر ومن جاء بعده كان من حتميات التقدم الحضارى ، والثقافى الذى تقدم خطوات كثيرة إلى الأمام بعد القرن الأول وشمل حتى الجوارى إذ عرفت أعداد كبيرة منهن بثقافتهن وتعلمهن .

أما لماذا لم يظهر مثل هذا الاتجاه فى الشعر الجاهلى أو حتى عند العذريين الأمويين فالجواب عنه سهل يسير وهو كما يقول شكرى فيصل: « فأما فى الحياة الجاهلية ، فى أوساطها التى كانت تعنى بالشعر أو تقوله ، فلم تكن الكتابة هذا الشىء الرائج المنتشر ، ولم تكن كتابة الرسائل إلى الأحبة بالشىء الذى يمكن أن يجد له مكاناً واضحاً فى تلك الحياة . . .ولم يكن كذلك فى بيئات الحب العذرى ، وهى بيئات تغلبها البداوة فى أكثر الأحيان ، ما يمكّن لهذه الكتابة[٤] » .

---

(١) الأغانى ١ / ٢٣٥ ثم العصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ٣٥٣ .
(٢) الأغانى ١ / ٢٣٦ .
(٣) انظر : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٤٨٠ – ٤٨٣ .
(٤) المرجع السابق نفسه ٤٨٢ – ٤٨٣ .

وعلى الرغم من هذا فإنه توجد إشارة إلى « الرسائل » فى شعر جميل لم تكن بينه وبين بثينة ، أشار إليها وهو يرد على فتاة كانت تعرض عليه حبها ووصلها وهو يأبى ذلك لانشغاله ببثينة وحدها فقال[١] :

فلرُبَّ عارضةٍ علينا وَصْلَها بالجد تخلطه بقــول الهــازل
فأجبتها بالرفق بعــد تستر حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى قلبى كَقَدرِ قُلامــةٍ فضلًا وصَلْتُكِ أو أتتكِ رسائلى

أما شعراء الغزل العفيف فى القرن الثانى وبخاصة العباس بن الأحنف فقد كثرت الرسائل فى حياته الغرامية ، ونقول العباس ؛ لأننا لم نجد شيئاً عند زملائه إلا ما ورد فى شعر عكاشة العمى فى قوله[٢] :

وجــه التواصل بيننــا فى الحسن كالقمــر المنير
إيماؤنا يحكى الكلا م وسرّنا فطن المشير
وحــديثنــا بحواجب نَطقَتْ بألسنة الضمــير
بل رُسْلنا الكتب التى تجرى بخافيــةِ الصدور

يرى ابن حزم فى باب المراسلة أنها ضرورية بين المحبين المثقفين ويقول إنها تأتى بعد مرحلة الامتزاج والانسجام التام[٣] . ثم يرى أن للكتب والرسائل عند المحبين أمارات ودلالات معينة أكثرها الفرح واللذة ، يقول : « حتى إن وصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية »[٤] . كما أن لرد الجواب والنظر إليه سروراً يعدل اللقاء ، فقد يلجأ العاشق إلى وضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه[٥] . وفى شعر العباس إشارة إلى ما ذهب إليه ابن حزم ، قال[٦] :

---

(١) ديوان جميل ٥٠ .
(٢) الأغانى ٣ / ٢٦٣ .
(٣) و (٤) طوق الحمامة ٣٣ .
(٥) المصدر السابق نفسه ٣٤ .
(٦) ديوان العباس ٢٧٧ .

أضحكنى طورًا وأبكانى كتاب مولاتى وخُلْصانى
طِرْتُ سرورًا حين أبصرتُهُ فاعترض الشـوق فأبكانى
بِتُّ بشمٍّ واعتناق لـه مستغنيًا عن كل ريَحْـان
واهًا لـه من زائرٍ مؤنس فرَّج عنى بعض أحـزانى

يبدو أن العباس كان هو البادئ فى كتابة الرسائل، وأن رسائلها إليه كانت بمثابة ردود على رسائله فى الغالب ، قال [1] :

أيا من لا يجيب إذا كتبنا ولا هو يبتدينا بالكتاب
أما فى حق حرمتنا لديكم وحق إخائنـا ، رد الجواب ؟

ولكنه فيما يبدو كان يحبس عنها الرسائل أحياناً لا عن هجر ، ولكن خوف الفضيحة لأن كثرة الرسل تفضح فى اعتقاده ، قال [2] :

لعمرى ما حَبْسُ كتابى عنكم لهَجْرٍ ولكن كثرة الرسل تفضح
وإن كنت لم أكتب إليكم فإنما فؤادى إليكم حين أمسى وأصبح

والذى فى شعر العباس إما رسالة ، وإما حكاية عن مضمون رسالة ، فمن النوع الأول لا نجد إلا أبياتاً قليلة فى مقطوعة واحدة جاءت على شكل رسالة نثرية صغيرة كأن يكتب فيها صاحبها «من فلان إلى فلان» ويفصّل بعد ذلك . ورسالة العباس تقول [3] :

من الدنف الذى يُمْسى حزينـا وبين ضلوعه قلب مصـاب
إلى الخَوْد التى سلبت فؤادى فأمسى ما يسوغ لـه شراب
ينام الهاجعون ، ونوم عينى إذا هجعوا بكاءٌ وانتحـاب
فلو نطق الكتاب ـ فدتك نفسى ـ بكى قلقًا ليرحمنى الكتاب

(١) ديوان العباس ٤٨ ثم انظر ٥٠ أيضاً .
(٢) ديوان العباس ٧٣ .
(٣) المصدر نفسه ٣٩ .

أما النوع الثانى فهو الغالب ، وفيه يتحدث عن مضامين ومحتويات الرسائل التى كانا يتبادلانها ، ولم تكن المضامين واحدة عند الطرفين . أكثر رسائل العباس كانت تدور على الشكوى وأثر الحب وما ولد فى نفسه وخلف ، وهذا مضمون إحدى رسائله [١] :

كتب المحب إلى الحبيب رسالة ... والعين منه ما تَجِفُّ من البكا
والجسم منه قد أضرّ به البلى ... والقلب منه ما يطاوع مَنْ نهى
قد صار مثل الخيط من ذكراكم ... والسمع منه ليس يسمع من دعا
هذا كتاب نحوكم أرسلتـــه ... يبكى السميع له ويبكى من قَرا
فيه العجائب من محب عاشق ... أطفاه حبك يا حبيبة فانطفا
وصبرت حتى عيـــل صبرى كله ... وهَوِيتكم ـ يا حِبَّ نفسى ـ للشقا

ومن رسائله ما كان يدور على الطلب إليها ألا تتوقف عن الكتابة إليه والرد على رسائله ، قال [٢] :

ردى جواب رسالتى واســـتيقنى ... أن الرسالة منكُمُ عندى شفا
منى السلام عليكُمُ يا منيتى ... عَدَّ النجوم وكلّ طير فى السما

أما مضامين رسائلها فما كنا لنعلم عنها شيئاً لولا العباس الذى يخبر عنها فى شعره ؛ فهى كما يظهر لم تكن تدور على موضوع واحد بعينه وإنما تعددت مضامينها واختلفت ، ففى الأبيات التالية تعتب عليه وتتهمه بأنه مَلَّها وخان عهدها ، قال [٣] :

بعثت إلىّ صحيفـــة مختومة ... نفسى الفداء لخطها والكاتب
ففككتها فقرأت ما قد حَبّرت ... فإذا مقالةُ مستزيرٍ عاتـــب
فى الود تزعم أننى ذو ملة ... خنت العهود ، فديتها من كاذب

---

(١) المصدر نفسه ص ١ ثم انظر ص ٥٦ أيضاً .
(٢) المصدر نفسه ٢ ثم انظر الصفحات ٣٠ ، ٣٧ أيضاً .
(٣) المصدر السابق ٢٨ ثم انظر ٧٠ و ٩٦ أيضاً .

أنىّ أخونك يا ظلوم! وحبُّكم منى بحيثُ جرى شراب الشارب؟

ومثل هذا ما كتبته فى رسالة أخرى أشار إليها فى قوله[١] :

يا أبا الفضل يا كريم التصافى ما لفوز تقول إنك جاف ؟
كتبتْ فى الكتاب فوزٌ فقالت فى عتاب منها وفى إلطاف :
ما مللناكَ إذ مللت ولكن أنت يا حِبُّ صاحب استطراف

كما كانت تطلب فى رسائلها أحياناً ألا يأتيها ، قال[٢] :

كتبت بأن لا تأتنى ، فهجرتها لتذوق طعم الهجر ثم أعاود

ثم إنها لما عزمت على الرحيل أو عزم على الرحيل بها كتبت إليه تخبره فقال وقد أزعجه الخبر وصدمته المفاجأة[٣] :

إنّ فوزًا لما أتـاها رسـولى كتبت أنها تريد رحيـلا
ما لكم لا يزال منكم كتاب يورث الهم والبكاء الطويلا

كما أنها ظلت تكتب إليه وهى بعيدة نائية تخبره ببعض أخبارها ، وهذا يدل على استمرار العلاقة بينهما بعد رحيلها ولكنها — كما أظن — لم تدم طويلا على هذه الحال ، قال[٤] :

كتاب أتانا على نأيها يخبّـر عن بعض أنبائها
فنفسى الفـداءُ لهذا الكتا ب إن كان خُطَّ بإملائهـا

والواضح أنهما كانا يكتبان الرسائل بأنفسهما ، غير أن فى شعر العباس إشارات يبدو منها أنه ربما كان هناك من يكتب لهما أحياناً ، فإن صح هذا فهو فى رأيى شىء غير مقبول ولا مستساغ فى الحب ، لأن الحب علاقة بين اثنين

(١) المصدر نفسه ١٨٧ .
(٢) المصدر نفسه ٨١ .
(٣) المصدر نفسه ٢٢٩ .
(٤) المصدر نفسه ٤١ .

لا يعرفها أو لا يستطيع أن يعبر عنها إلا من يعيشها حقًّا ، وحتى لو كان كاتباً يملى عليه فغير جائز أيضاً للسبب نفسه ، ومما قاله العباس ويدل على هذا قوله[١] :

كتبت فأكثرت الكتاب إليكُمُ على رغبـــة حتى لقد ملّ كاتبي

أما قوله[٢] :

ما لى أهان ولا تُجاب صحائفى وإلى متى أُقصى لديك وأُحجب ؟
ما كان ضرَّك إذ كَرِهْتِ أميرتى أن تكتبى – أن تـأمرى – مَن يكتب

فقد وقفت عنده عاتكة الخزرجى تدلل على رفاهية صاحبة العباس وعلو منزلتها حتى خيل إليها أنه كان لها (سكرتير) – كما تقول هى – يكتب لها ما تشاء ، وأرى أنه استنتاج بعيد فالذى يفهم من البيت الأخير بموجب ما قبله أنه لكثرة إهمالها رسائله والرد عليها حاول أن يرد عليها العباس بطريقة فيها نوع من التعريض والإشارة إلى التثاقل والإهمال ، وهى طريق فى المخاطبة كثيراً ما يلجأ إليها الناس فى الحياة اليومية العادية ؛ وعليه فإن معناه لا يخرج عن أن يكون : إذا كنت مشغولة إلى هذا الحد فباستطاعتك تكليف من يكتب رسائل نيابة عنك : والتعريض فى مثل هذه الأحوال – إن لم تكن السخرية – واضح جداً .

إن الواسطة التى كانت تنقل الرسائل بين الحبيبين هى الرسل ، يقول العباس[٣] :

ألستَ ترى الرســول كما تراه يبلغهــا ويأتى بالجواب ؟
ويذهب بالكتاب بمــا ألاقى فتلثمــه فطوبى للكتاب

ويقول[٤] :

أيام ينقلُ بيننا أخبارنا ذو قُرْطق متكحل متخضّب

---

(١) المصدر نفسه ١٦ .
(٢) المصدر نفسه ٥٨ .
(٣) المصدر نفسه ٢٠ .
(٤) المصدر نفسه ٣٨ .

لقد عانى العباس من الرسل كثيراً ، فقد مر أن أكثرهن اتهمته . راودتهن ، وكان ينفى المزاعم فى كل مرة ويقسم بأيمان مغلظة ، ثم يقول إنه كان فى هؤلاء الرسل الأمين الوفى ، والخائن الدنىء ، فى البيتين التاليين يطلب إلى صاحبته أن تستخلف بأحد الرسل رسولا أميناً ذا محافظة ، قال [١] :

إن الرسول الذى كانت سرائرنا ... مدفونةً عنده يا فوز قد ذهبا
فاستخلفى لى رسولاً ذا محافظة ... لا خير فيه إذا ما خان أو كذبا

وكما كانت تنقطع الرسائل ، كان الرسل ينقطعون أيضاً ، قال [٢] :

أيا وحشتا لانقطاع الرسو ... ل ممن أُسرُّ بأخباره

ووجود الرسل بين المحبين أمر مهم جداً يجب أن يحسب له حساب ، وأن العباس كان على حق وهو يتشدد فى هذه المسألة ويطلب إلى صاحبته أن يكون الرسول من الأمناء الأوفياء ، وأن تتوفر فيه صفات معينة ، وقد شدد ابن حزم فيما بعد فى وجوب تخير الرسول واستجادته لأنه دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته وسرّه وفضيحته بعد الله تعالى [٣] .

كان العباس يطمئن إلى بعض الرسل ويفرح كثيراً بتصرفاتهم وما ينقلون إليه من أخبار ، كما كان يعكس فيهم كل ما يريده من محبوبته ، لأن الرسول عنده سفير وحسبه أنه رأى صاحبته وتفحص محاسنها كيما يراها هو بدوره عن طريق رسوله ، يقول [٤] :

إن تَشْق عينى بها فقد سعِدَتْ ... عينُ رسولى وفُزْتُ بالخَبَرِ
وكلما جاءنى الرسول لها ... رددتُ عَمداً فى طَرفه نظرى

---

(١) المصدر نفسه ٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ١٥٠ .
(٣) طوق الحمامة ٣٤ .
(٤) ديوان العباس ١٥٣ — ١٥٤ .

تظهر فى وجهه محاسنُهـــا قد أثَّرت فيه أحسن الأثر
خذ مقلتى يا رســول عاريةً فانظر بها واحتكم على بصرى

ولما تبين فيما تقدم أن الصلة بينهما قد أنبتت حبالها ، كان لزاماً أن تنبت كل العلائق والصلات وتتفكك عرى الروابط جميعاً ، فمن الطبيعى إذن أن تنقطع الرسائل والرسل ويعبر العباس عن هذا بشعره كما عبر عن انتهاء العلاقة من أساسها ، قال [١] :

متى كانت ظلوم إذا أتـــاها كتاب لا ترد له جوابا
تناسانى الحبيب ومَلَّ وَصْلى وصَدَّ فلا رسول ولا كتابا

وقال [٢] :

وآليتِ ألا تكتبى ففجعتنى بأكبر شىء منك كان يكون

وهكذا انتهت العلاقة بين العباس وصاحبته نهاية صامتة لم يذكر الرواة من أمرها شيئاً ، كما أنهم لم يذكروا شيئاً ذا بال عن قصة حبهما من أساسها ولولا شعر الرجل نفسه كما استطعنا تبين ما تبيناه .

---

(١) ديوان العباس ٤ .
(٢) المصدر نفسه ٢٦٦ .